

علي الطنطاوي

بِجَدِّهِ

ذَكَرَ بَابَ وَمَشَاهِدَات

المكتبة الأزهرية

جميع الحقوق محفوظة
يمنع النقل والترجمة والاقتباس
للاذاعة والسرّج الا بإذن خطي من المؤلف

الطبعة الأولى
١٣٨٠ - ١٩٦٠

مطابع دار الهنيك برشق
١١٠٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ونستعينه وتوكل اليه ونستغفره
ونعوذ بالله من شره ورأفنا وسيئات أعمالنا ،
اللهم اجعل عملي هذا خالصا لك ،
اللهم اني أسألك أن تنفع به ، وأن تشيبيني عليه ،
وصل اللهم على سيدنا محمد معكم الخير وعلى آله
وصحبه ومن تبعهم باحسان .

فيلم بغداد

كتبت سنة ١٩٥٦

لما بدت لي بغداد من كوة الطيارة^(١) ، تلوح في وهج الظهيرة ، كأنها حلم الحرية يلوح لاجئين ، أقبلت انظر اليها من خلال الزجاج ، وأقبل الماضي ، ماضي بغداد ، ينظر الي من خلال السنين ، وارتدت بي الذكرى ألفاً وخمسة مئة مرحلة في طريق الزمان ، ثم وقفت بي على درب القرون ، أراها وهي تمر بي قرناً بعد قرن ، وأشاهد مواكب الأيام وهي تجوز بي موكباً اثر موكب ، كـ (فيلم) في سينما ، تعرض فصوله (قصة بغداد) ، ولو كنت أستطيع أن أعرض (الفيلم) كله ، لأحسستم أنكم تعيشون معي في قلب التاريخ ، وتحبون معي (أشخاصاً) في هذه القصة العبقريّة التأليف والإخراج ، ولكن الفيلم طويل ، فاكتفوا بهذه اللامعات الخاطفة من هذا (الفيلم) العظيم .

* * *

نحن الآن في مطلع الفيلم ، قبل ألف وأربعمئة سنة ، وبغداد قرية صغيرة ، عندها سوق للغنم والجمال ، ومن حولها السواد فيه النخيل ، ومن وراء السواد هذه الصحراء التي تتلظى فيها الرمال ،

(١) في زيارتي الأخيرة لبغداد سنة ١٩٥٤

وتتوقد الشمس ، ويبدو من كل جهة فيما وجه الموت يتربص لكل
قادم عليها من غير أهلها الذين أنسوا بالموت حتى رأوا فيه الحياة ،
يعيشون عيش الأسد في آجامها ، يُدّلون بمثل ظفر الأسد وثابه ،
ويطوون صدورهم على مثل جرائه ووثابه ، لذلك كانوا يجتربون
ويتقانون ، اذا لم يجدوا من يجاربون ويقتلون ، لا شريعة لهم إلا شريعة
القوة ، ولا حكم إلا حكم السيف .

وفي جوار هذه القرية الحاملة كانت تقوم المداخن ، قرارة
كسرى شاهنشاه ، وفيها عرشه وإوانه ، المعجم يسجدون بين يديه
ويكفّرون^(١) له ، والعرب يكبرون مكانه ويخافون سلطانه ، ويسمون
عاملاً من عماله (هو مدير ناحية الخيرة ، النعمان بن المنذر) ، يسمونه
ملك العرب .

وبدور الفلم ، ويبدأ فيه فصل جديد .

انظروا ، لقد ماج هذا البحر من القبائل التي كانت تسكن الصحراء ،
وتحرك واضطرب ، ثم جرى فيه تيار قوي يجرف في طريقه كل شيء ،
لقد اتحد القوم المتفرقون ، ونبذوا راياتهم وهي شتى ليحملوا راية واحدة
جديدة ، هي راية القرآن ، يقودهم نحتها (المثنى بن حارثة)
فخور ببغداد .

وها هم اولاء يتقدمون ، ويتقدمون ، ويتقدمون ، لقد كانت
العجب العاجب ، هؤلاء البدو الجاهلون ، ملكوا ملك كسرى ،
فلا كسرى بعد اليوم ، وشادوا في مكانه ملكاً أنفع منه وأبقى ...

(١) ينعنون تعظيماً .

ويدور الفلم ، وتظهر صورة ثانية لبغداد .

نحن في سنة ١٤٥ للهجرة ، وقد اندثرت القرية وذهب بها ريب الزمان ، وعادت الأرض مراتع وبساتين ، وكان صباح يوم حائف من أيام الخريف ، فوقف بهذه الساحة ركب من الناس ونزل رجال يذرعون الأرض ، ويقيدون طولها والعرض ، فسألت : من هؤلاء ؟ وماذا يصنعون ؟

قالوا : ألا تعرف من هؤلاء ؟ يا عجباً ! هذا هو الرجل الذي عاش ثلثي حياته عالماً مغموراً لا يدري به أحد ، وعاش ثلثها الثالث وهو الحاكم المطلق ، في نصف المعمور من الأرض ، من أقصى المغرب الى أقصى المشرق ، هذا هو الرجل الفولاذي الصلد ، الذي بنى دولة عاشت راياتها وشاراتها ، واستمر ذكرها على المنابر أكثر من ثمانية سنة ، هذا (ابو جعفر المنصور) جاء يقيم هاهنا مدينة .

ولم يغتصب الرجل الحديدي ، ذراعاً واحداً من الأرض ، وما كان الغصب يوماً من صفات الخلفاء المسلمين حقاً ، بل اشترى الأرض من أصحابها بأكثر من ثمنها ، وأقام مدينته عليها .
لقد مر على هذا المشهد سنتان ، ودار الفلم دورة جديدة وإذا المدينة عامرة .

أترونها على الشط الغربي لدجلة ؟ انما مدورة ، على هندسة مبتكرة ، ما في المدن شبيه لها إلا دهلي الجديدة (نيودلهي) اليوم ، لقد احتفل بافتتاحها سنة ١٤٩ . وبلغت نفقات بنائها ١٨ مليون دينار . أتعرفون كم تبلغ من نقود هذه الأيام ؟ لقد ذكر المؤرخون أن الدينار كان يشتري به يومئذ تسعة عشر خروفاً ، وألف ومئتا رطل من التمر ،

وكانت أجرة العامل مدى ستة أشهر ديناراً واحداً ، فانظروا كم يساوي مبلغ ثمانية عشر مليون دينار من نقود هذه الأيام (١) ؟

وجعلها مدورة اثلاً يكون بعض أنحائها أقرب إليه من بعض ، وجعل فيها مجلسه وأقام عليه ايواناً عليه قبة خضراء ، علوها ثمانون ذراعاً ، وجعل من المجلس الى الأرض الفضاء نفقاً (مرداباً) طوله فرسخان ، وبقيت هذه القبة وهي (كما يقول الخطيب البغدادي) تاج بغداد ، وعلم البلد ، ترى من أطرافها جميعاً ، حتى هوت في ليلة عاصفة من سنة ٣٢٩ هـ أي بعد مائة وثمانين سنة .

ودار الفلم ، وظهرت صورة ثالثة لبغداد .

لقد بلغت بغداد من عمرها عشر سنين فقط ، ولكنها شئت كما يشب الجني في قصة الف ليلة ، واستطاعت أن تقفز من فوق دجلة الى الضفة الأخرى ، فهل سمعتم ببنت عشر سنين تقفز نمرأ عرضة خمسة ذراع ؟

لقد أقام المهدي الرصافة ، فصارت بغداد بلدين : الكرخ من هنا (من جهة الشام) وفيها مدينة أبي جعفر المدورة ، والقبة الخضراء . والرصافة من هناك .

وتسكملت بغداد ، واتصل الشاطئان ، وامتدت الدور ، وتناثرت القصور ، وسكرت بغداد بنجمة المجد والجاه والعلم والفن والغنى والسرور ، وجاء العصر الذهبي عصر الف ليلة وليلة ، عصر هارون الرشيد ، الذي قال للسعابة لما رآها : امطري حيث شئت فسيأتي خراجك ، والذي كانت

(١) اذا كان الحروف اليوم بأربعة دنانير، فكل دينار يساوي اليوم ستة وسبعين ديناراً.

كلمته تمضي في الارض حتى تصل الى ابواب الصين ، وشواطئ الاطلانطي
لا يرد لها شيء ، والذي ملك ما لم يملك قبله ملك قط ، وقام ليلة بصب الماء
على يد العالم أبي معاوية الضرير بعد ان عشاء معه على مائدته ، فقال للعالم
الضرير : أتدري من يصب الماء على يديك ؟ قال : لا . قال الخليفة
العظيم هارون الرشيد : أنا !

فهل تروته اضرب العالم أو اهتز ؟ لا والله ، وبقي يغسل يديه وهو
يقول : إنما كرمتم العلم يا أمير المؤمنين .
هكذا كان ملوكنا يا سادة ، وهكذا كان العلماء .



لقد صارت بغداد أم المدن ، ومهاجرة الحواضر ، وبلغت ما لم تبلغه
روما في سلطانها ، ولا القسطنطينية ولا المدائن ذات الإيوان ، لقد
غدت سيدة العالم والبلاد لها خول ، ما يظهر في بلدة طريف ولا ظريف من
ثمرات الأيدي ، ولا من نتاج الطبيعة ، ولا من حصاد الأدمغة ، إلا حمل
الى بغداد ، ولا ينبغ نابغ في مشرق من الأرض ولا مغرب إلا أمّ بغداد ،
فالقوافل أبداً تتجه الى بغداد بكل ثمين وجميل ، تحمله اليها لتلقيه بين يديها
كما تحمل ماءها الأنهار من كل مكان لتصبه في البحر .
لقد تمت ، ولكن :

إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم
لقد أصابتها عين الحسود ...

لقد حلت النكبة ببغداد ، ونزات ساحتها الحرب بوجهها الكالع ،
ومنجلها الذي يحصد الاخضر واليابس .

انها الحرب الداخلية ، الحرب بين الولد المدال المترف وأخيه الجاد
العامل ، بين بغداد التي تمس كعروس جمع لها الشباب والجمال والحسب
والمال ، وبين (مرو) التي وقفت بقدمي الرجل الصلد المتكشف ،
بين الأمين والمأمون .

انما إحدى الثمرات المرة لهذه الغرسة التي غرسها في تاريخنا معاوية رحمه الله
حين عهد بالخلافة لابنه يزيد ، وعلّم الخلفاء بإثارة مصلحة الولد على مصالح
الامة ؛ للنظام الملكي في الحكم .

ولكن الغادة الشابة القوية لا تموت من الموضة العارضة مهما اشتدت ،
ولقد برئت بغداد ، وعادت الى أبيها كما كانت عليه وأزهرى .

ومضى الفلم ، وبدأت صورة لبغداد وهي على كرمي الولادة

لقد ولدت بغداد ، وكان الطبيب المولّد ، هو الخليفة الذي كان
آية في قوة جسمه ، ورجولته ، وآية في جهله وعاميّته ، والذي
أدخل جراثيم المرض الفتاك في جسد هذه الدولة القوية ، المعتمد الذي
جاء بغلامات الاتراك فجعلهم سادة الدولة ، فجور علينا مصائب
ثمانية قرون .

لقد ولدت بغداد يا سادة ، ولدت بنتاً ولكنها جاءت جنيّة بنت
جنية ، أعجوبة ولدتها أعجوبة ، وهل أعجب من مولودة تخرج من يد
القابلة وهي توقص وتغني وتتكلم بسبع لغات ؟

ولم تكد تنتهي أفراح الولادة ، حتى كانت أيام المأتم

لقد ماتت الوايلة طفلة ، ماتت وهي في مثل عمر الفل ، ولكنها
تركت في تاريخ الاجاد عبقاً أطيب من أريج الفل ، تلك هي (سر من رأى)

(سامراء) التي لم تعيش إلا ثمانياً وأربعين سنة فقط ، والتي بلغ سكانها مليونين ، على حين كان في بغداد أيضاً أكثر من مليونين ، ولن أحدثكم عن سامراء ، فافتحوا معيهم البلدان تروا طرفاً من ماضيها ، وافتحوا كتابي في بلاد العرب ، تروا طرفاً من حاضرها ، وانلوا ما قال البحتري في بركة قصر المتوكل ، لقد رأيت آثار البركة من عشرين سنة ، وقست قطرها فكان أكثر من مئتي خطوة . لقد مشينا فيها خمسة وعشرين كيلاً بالسيارة وما قطعنا نصف المدينة من هنا ، فماذا تكون مساحتها وعلى الشط الآخر من هناك مثل ذلك ؟ لقد مررنا بشوارع عرضه مئة ذراع ، سرنا فيه نحواً من ستة أكيال (كيلو مترات) ورأينا القصر الجعفري الذي قتل فيه المتوكل ، فاذا هو أكبر من مدينة سامراء الحاضرة ...

ماذا أقول لكم عن سر من رأى التي كانت أوسع رقعة من باريس اليوم ؟ عن عظمتها ؟ عن آثار مصنع الزجاج الملون العجيب فيها ؟ ومصنع النماش الذي أخرج من أقشته ما يزري بما على أجساد حسان هوليرد ؟

يا أيها القراء ، استحلفكم بالله ، ان زرت العراق أن تجوزوا بسامراء ، فليس في آثار المجد الاسلامي ما هو أروع منها ، ولا في قصص الآثار العربية ما هو أحلى وأشجى من قصتها ، اللهم إلا (تاج محل) في (افرا) عند دلهي . ومن عرف الالمانية يجد حديثها كاملاً في المجلدات التي وضعها عنها هرسفلد الالمانى^(١) .

* * *

(١) وهو الذي نقب عنها وكشف آثارها .

وهضى الفلم ، وبدأت صورة بغداد ، وقد وصلت الى ذروة مجدها
وجلالها ، وحازت ما لم تحزه قبلها مدينة من المدن .
وهذا يوم واحد من أيام بغداد العظيمة ، ولست مستطيعاً أن
أصور لكم كل ما كان في ذلك اليوم ، فمل وأيتم في السينما مشاهد تتويج
الملكة في انكلترا ؟ إني أؤكد لكم القول ان حفلات التتويج تكون
حادثاً صغيراً إذا قيست بحفلات استقبال وفد قيصر القسطنطينية في بغداد
أيام المقتدر .

لقد وقف مئة وستون ألف جندي ، بأكمل عدة وأفخر ثياب ، من
خارج المدينة الى باب قصر التاج ، جنود من كل البلاد ، وكل الاجناس ،
وأقيمت الاقواس والاعلام وسُلِّسَت المصابيح ، ومدَّت النمازق
والسجادات والبسط العجيبة على طول الطريق ، فبلغ عددها اثنتين وعشرين
الف قطعة سجاد ..

وخرج أهل بغداد جميعاً ، وقد زادوا عن ثلاثة ملايين ، الى الطرقات
التي سيجتاز بها موكب الوفد ، فبلغت اجرة مجلس الرجل الواحد في الدكان
أو على السطح عشرين درهماً ، أي أكثر من دينار .

ولبس قصر التاج حلة لا يمكن لقلم كاتب أن يصفها ، وحسبكم أن تعلموا
ان عدد ما علق فيها من ستور الديباج المذهبة الطراز ، المصورة بأبداع
ما أخرجته أيدي النقاش والمصورين والمطرزين في أرجاء الارض كان ثمانية
وثلاثين الف ستور .

ولا تحسبوا قصر التاج كما تعرفون من القصور ، لا ، ولا تظنوه
كالخراء في غرناطة ، ولا فرساي في باريز ، كان فيه ثلاثة وعشرون
قصرأ ، كل واحد منها أكبر (كما وصفوا) من قصر عابدين في مصر .

وكان في اصطبل الخيل في القصر الف فرس ، خمسة على اليمين ،
عليها السرج المحلاة بالذهب والفضة ، وخمسة على اليسار بجلال الديباج
والبراقع الطوال ، وكل فرس أمام بيته بيد سائس بأجمل بزة .

ومروا بالوفد على حَيْر الوحوش^(١) المستأنسة ، وكان فيه مئة من
السباع ، خمسون عن يمين وخمسون عن يسار ، وفيه دار الفيلة .

ثم مروا به على قصر الفردوس ، وكان فيه بهو طوله ثلاثئة ذراع قد
صفت فيه أنواع الاسلحة ، التي لم ير الراؤون مثلها .

ثم دخلوا به دار نصر الحاجب ، فلما رأى الوفد عظمة المكان ،
وأبهة نصر محسبوه الخليفة فركعوا وسلموا ، فقبل لهم : كلا ، هذا
هو الحاجب .

ثم أدخلوهم على الوزير ابن الفرات ، وكان في مجلس في حديقة
القصر بين دجلة والبستان ، قد علفت فيه الستور ، ومدت الفرش ،
وكان شيء عجيب ، فحسبوه الخليفة فركعوا وسلموا ، فقبل لهم ،
هذا هو الوزير .

ثم وصلوا الى الخليفة ، واستقبلهم في دار الشجرة ، وهي شجرة من
الفضة وزنها ٥٠٠ الف مثقال وبعضها من الذهب والجوهر ، لها غصون
وأوراق تيمس ميسان أغصان الشجر ، وعليها أطيار من الفضة تصفر وتتحرك
بحركات قد رتبت لها . وكان عدد خدم القصر المنبئين في الممرات والدهاليز
وعلى السطوح ، بألبسة عجيبة وزينة بالغة ، سبعة آلاف خادم ، وكانت
الحجائب أكثر من خمسة .

(١) حير الوحوش حديقة الحيوان ، واصل الحير البستان .

وكان يوم من أيام التاريخ .

★ ★ ★

ومضى الفلم ، وبدأت صورة بغداد وقد وشحت بالسواد ولبست
ثياب الحداد .

لقد ماتت بغداد بني العباس وكل حي الى ممات ، وذهب شبابها وما
يدوم في الدنيا شباب ، واهت محاسنها وخربت أيدي الوحوش
البشرية من جند هولاء ، جاءت بهم خيانة الوزير ابن العلقمي ، فذل
الأعزة من أهلها ، وانتك المصوت من أعراضها ، وذبح علماءها
وكبراءها وأمرائها ، وأعمل السيف في أهلها أربعين يوماً ، فبلغ القتلى
أكثر من ألف ألف ، وألقيت كتبها في دجلة فاسودت منه مياهها حيال
الضفتين أياماً ، وذهب نتاج العقول ، وحصاد العبقريات ، وثمرات
الأيدي الصانع ، وكانت مصيبة المصائب على الاسلام وأهله ، وغدت
بغداد خرائب وأطلالاً .

لسائل الدمع عن بغداد أخبار	فما وقوفك والاحباب قد ساروا
يا زائرين الى الزوراء لا تفقدوا	فما بذاك الحمى والدار دينار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت	به المعالم قد عفاه افقار
أضحى لعطف البلى في ربه أثر	وللدموع على الآثار آثار

★ ★ ★

وتوالت المصائب على بغداد ، ولكن البطولة التي صبها (محمد) في
عروق هذه الأمة لم تمت ، وقامت مصر الاسلامية تقف في وجه المغول

وحدها بعدما اجتاحتها بغداد وعصفت رياحهم بكل قطر ، ينفخ في
أرواحها الحاسة ، ويعدها النصر ، ويسوقها الى القتال شيخ من الشام
هو العز بن عبد السلام^(١) ، وانتصر الإسلام على المغول في وقعة عين
جالوت ، وانقذت مصر والشام ، كما أنقذت فلسطين من الصليبيين لما
رمتها اوروبة كلها عن قوس واحدة ، وكما ستقذ من اسرائيل عندما
يقيض الله لها شيخاً كابن عبد السلام ، أو قائداً كصلاح الدين أو
الظاهر بيبرس .

ونمضت بغداد من سقطتها ، ووقفت بغداد غلى قدميها .

وانقضى الفلم ، وصورة بغداد بمناراتها وقبابها ، ومعاهدها ومدارسها ،
وامتدادها وعمراتها ، تملأ أبصار المشاهدين ، وتعيش أبدأ في قلوبهم .
فسلام على بغداد ، على بغداد المنصور والرشيد ، على بغداد الأئمة
والمحدثين ، على حاضرة الدنيا ومثابة الدين ، على بغداد الجديدة المتوثبة
وملء أهاليها العزم والإيمان ، على بغداد التي ستكتب قصتها مرة أخرى ،
في صحائف القوة والعلم والمجد .

♦ ♦ ♦

(١) الفخر خبزه في كتابي (رجال من التاريخ) .

من دمشق الى بغداد

كتبت سنة ١٩٣٦

لما جاوزنا (أبا الشامات)^(١) وأصغرنا ، ونظرت بين يديّ وعن
يميني وعن شمالي ، فلم أجد إلا الصحراء الصامته الرهيبة الموحشة ،
ورجعت دمشق التي أحببتها ولقيت فيها من يحبني ، وألفتها وتركت في كل
بقعة منها قطعة من حياتي وطائفة من ذكرياتي ، قد اختفت وراء
الأفق ، وتضاءل (قاسيُونها) وصغر حتى ما يبدو منه إلا خيال علويّ
يلوح في السماء ، له وميض ولمعات ، أحسست بلوعة الفراق فخفق
قلبي خفقاناً شديداً :

كان القلب ليلة قيل يغدى بليلي العامرية أو 'يراح
قطاة غرها شرك فبانت تعالجه وقد علق الجناح

وخالطني حزن عميق وشعور مبهم ، أعرفه من نفسي كلما سافرت
سفرأ بعيداً (على كثرة ما أسافر وابتعد) شعور من يجد الموت
ويبصره بعينه !

ولم لا ؟ وهل الحياة إلا أن تقيم في المكان الذي تألف ، وترى
الناس الذين تحب ، وتصل ماضيك بحاضرك بصورة تراها ، أو نعمة تسمعها ،
أو بقعة تحملها ؟

(١) في زيارتي الاولى لبغداد سنة ١٩٣٦ ، وابو الشامات آخر مخفر سوري على
صيف الصحراء .

وهل يحيا المرء إلا في الأمكنة والوجوه ، وبالذكريات والآمال ؟
وهل الموت إلا أن ينبتر ما يحيط به ، وينقطع عن كل ما يعرف ،
ويقدم على بلد مجهول ، وحياة غريبة عنه ، لا عهد له بها ، ولا
نبأ عنده منها ؟

أوليس للانسان حياة ظاهرة في قيامه وعوده ، وطعامه وشرابه ،
وجيئته وذهابه ، وحياة باطنة في أسكائه وذكرياته ، وآماله وآلامه ،
وميرله وعراطفه ؟

أو ليست حياته الباطنة هي الأصل وهي الأساس ، فلا يحيا إلا بها
ولا يقوم إلا عليها ، كما أن الشجرة لا تنحيا إلا بجذورها الممتدة في جوف
الارض ، المخفية في بطن الثرى ، فإذا انقطع المرء عن عاداته ، وابتعد
عن أهله وصحابته ، لم ينفعه أنه لا يزال يقوم ويقعد ويأكل ويشرب ،
كما أن الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها ، إذا هي بترت من أرضها ،
وقطعت من أصلها ، وفصلت عن جذورها .

وأحسب أن الله جلّ وعزّ ما قرن الموت بالإخراج من الديار ، وأجزل
ثواب المهاجرين في سبيل الله ، التاركين أوطانهم ابتغاء مرضاة الله ، إلا
لان الهجرة ضرب من ضروب الموت ولون من ألوانه ، فإن (تعددت
الالوان فالموت واحد) !

وازدحمت في نفسي صور حياتي في دمشق ، وحببت إلي أضعاف
ما كنت أحبها ، ومرت أمامي صور إخواني وأهلي وإخواني ، وذكرت
سهراتنا البيتية ، ومجالسنا الأدبية ، وهذه الحفلات الوداعية الكثيرة التي
تفضلت فأقامتها أسرة التعليم ، وجمعية التمدن الاسلامي ، والمدرسة التجارية

تكريماً لي قبل أن أعمل شيئاً أستحق عليه التكريم ، وافيض عليّ من النعمت
ما ليس فيّ ولا أستحق الاقلّ منه .

وذكرت من دمشق كل حبيب إليّ جميل في عيني ، فازددت بها تعلقاً ،
ووددت لو أنّي أبقيت فلم أذهب ولم أتغرب .

وكانت الصحراء قد امتدت من حولنا ، وأحدقت بنا ، وصرنا في قبضتها
لا شأن لنا ولا خطر ، وآضت هذه السيارات الفخمة التي كانت تملأ
الشارع بطوله وعرضه وكانت تعد وهي في دمشق شيئاً عظيماً ، أهون
على الصحراء من حبة رمل ! وضاعت في أرجائها فلم تعد شيئاً .
وكان قد بلغ مني الحزن ، وحزّت في نفسي لوعة الفراق ، فأغمضت
عيني ورجعت الى نفسي ، حتى إذا استروحت فتحتهما وجعلت أهدق في
هذه البادية ، فأرى السيارة تعدو فيها وتسرع حتى نحسّ كأنها تطوي
الارض طياً ، وأراها تلهث من التعب ، والبادية باقية على حالها ، كأننا
لم نقطع منها شبراً ، وكأننا بعد في أماكننا .

ولست غريباً عن البوادي ، فقد عرفتها في رحلتنا (١) الى مكة ،
وبقيت فيها عشرين يوماً ، ما من ساعة منها إلا وهي أشدّ من عشرة
أسفار الى بغداد ، ولكن هذه البادية (بادية الشام) ، تختلف عن جزيرة
العرب ، ففي الجزيرة مناظر متباينة ، وأراض مختلفة ، فيها الجبل وفيها
السهل ، وفيها الوعر وفيها الرمل ، وما في هذه إلا شيء واحد لا يكاد
يختلف أو يتغير ، أرض منبسطة ترابية قاحلة ، تمتد الى الافق ، كأنها
بحر ليس فيه ماء !

(١) اقرأ وصفها في كتابي (من لفتات الحرم) .

فكنا نقرأ ونتحدث لنقطع الصحراء بجديتنا ، فتقطع الصحراء بصمتها
وجلالها حديتنا ، وكنا ننام ونفיק والصحراء هي هي ... حتى قطعنا يوماً
كاملاً ، وكان صباح اليوم التالي ، وللصبحاح في البادية جمال وروعة ،
لا يكون مثاهما في المدن ، وبددت الشمس ظلمة الليل ، فتبددت من نفسي
ظلمة الكتابة والحزن ، وانزاحت عني نوبة المرض ، وما العاطفة الرقيقة
المونسة إلا مرض في الرجال ، فصحوت ونظرت في أمري فإذا أنا لم أغرب
ولم أفارق بلدي .

وهل بغداد إلا داري وبلدي وفيها أهلي وإخوتي ، إن لم تقرر هذه
الاخوة الانظمة ولم تسجل في الدساتير ، فلقد قررها الله من فوق سبع
سمواته وسجلها في القرآن : « إنما المؤمنون إخوة » . وليس ينقض
ما أبرم الله .

وإن فرقت بيننا شارات على الارض ، وألوان على المصور ،
فلقد جمع بيننا الدين^(١) واللغة والعادات ، وألف بيننا تاريخ الماضي ، وأمل
المستقبل ، وألم الحاضر ، ووحد بيننا الدم الذي جاء من نبتة واحدة .
فأنسى ننكر هذه الاخوة وشاهدها فينا ، ودمها في عروقنا ؟ وكيف
أجهل بغداد ولها في نفسي مائة صورة ، وفي ذاكرتي عنها ما لا أحصي من
الاخبار والتراخي والاشعار .

وبغداد عاصمة الإسلام ، ومشرق شمس الحضارة ، وحاملة راية العصر
الذهبي الاسلامي ، وأم الدنيا ، ومنزل المنصور والرشيد والمأمون ...

فدى لك يا بغداد كل قبيلة من الارض (الا) خطني ودباريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها وسيّرت رحلي بينها وركابيا

(١) وكفى به جامعا بيننا .

فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهلها أرق شمائلاً وأعذب أفاظاً وأحلى معانها

و كنت أرانا نخاف هذه البادية ونحن على طريق مساوكة في سيارة
متينة ، ونزل من طولها ، ونحن نقطع منها ثمانين أو تسعين كيلاً في الساعة ،
ونشكو ومعنا اللحم والفاكهة والماء الثلج ، ونتعب ونحن مضطجعون
على المقاعد الوثيرة ، ثم إذا وصلنا الى الفندق غننا أربع عشرة ساعة ، لنستريح
ونسترد الروح ، فأفكر في أجدادنا أي ناس كانوا ؟

وكيف قطعوا هذه البادية وهم على ظهور الإبل ، يخوضون لجة الرمل
الملتب ، يلتحفون أشعة الشمس المحرقة ، يتباعدون من الطعام بتمرة ،
ويكتفون من الماء بجرعة ، ثم إذا وصلوا قابلوا جيوشاً أوفر عدداً
وعُدداً فحاربوها وانتصروا عليها ، وفتحوا بلادها ، فأقول : هذا هو
فرق ما بيننا وبين أجدادنا .

هذا هو الفرق بين الشاب منهم تصيبه ضربة في المعركة ، فتقطع يده
من كتفه وتلبث متعلقة به ، فتؤذبه وتعيقه عن القتال ، فيعبد إلى
أصابع يده المقطوعة ، فيدوس عليها بقدمه ، ثم يتطلى حتى يبتريها ، ثم
يلقيها ويعود الى جهاده ، والشاب منا يزاحم المرأة على كل شيء هو لها ،
فيخطر في الشارع كالعروس في ليلة الزفاف ، وإذا شاكته شوكة ، أو لفحته
الشمس ، أوى الى الفراش !

ولما كانت ضحى الغد بدا لنا نخيل العراق ، وأشرفنا منه على مثل
الليل ، فعرفت لماذا سمي العرب السواد سواداً ، وذهبت أذكر الفتوح
(وعهدي بطلعتها قريب^(١)) فأحس بأني أسمو عن زماني وأعيش في أيام الصدر

(١) كنت اشتغل قبل سفري بتأليف كتابي عن أبي بكر الصديق .

الاول وأقدر بعد نظر المستعمرين وصحة رأيهم في تعظيمهم التاريخ الإسلامي في مدارسنا ، وتنشئة أبنائنا على الجمل به والبعد عنه ، لما لهذا التاريخ من العمل السعري على بث روح الشرف والنبيل والقوة والعزة والفضيلة في نفوس شباب العرب ، ولأنه شمس إذا طلعت كسفت هذه الانوار الكهربائية ، التي أضاء بها الغربيون أرجاء تاريخهم ، فبدت توارى عنهم بعد ذلك سوداء مظلمة ... وبدأ وحده المشرق المنير :

وجعلت أتشوق إلى بغداد ، وأعرض في ذاكرتي صوراً منها ، وأنتظر أن أرى مدينة المنصور ، بأسوارها المستديرة وابوابها الفخمة ، وألمح قببها الخضراء العالية المشمخة ، الزاهية في السماء ثمانين ذراعاً طالعة علينا من عرض الفلاة ، تضرب صورتها في دجلة^(١) ، وملأ نفسي الشعور بعظمة بغداد ، المدينة التي كانت وحدها دنيا ، (كان فيها ستون ألف حمام ، فلو أن في كل حمام خمسة نفر : حمامي وقيم وزبّال ورفاد وسقاء ، وذلك أقل ما يكون ، لكان أصحاب الحمامات ثلاثمائة ألف رجل ، وكان حيال كل حمام خمسة مساجد ، فلو أن في كل مسجد خمسة أشخاص لكان ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان . وأحصيت الزوارق التي في دجلة فكانت ثلاثين ألفاً^(٢) .

قال الخطيب : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير ، في جلالة قدرها ، وفيخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالّها وأسواقها ، وظيب هوائها ، وعدوبة مائها ، وبرد.

(١) سقطت هذه القبة وتهدمت من قديم .

(٢) كذا قال المؤرخون . والمبالغة في ذلك كله ظاهرة .

ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ،
وزيادة سكانها .

• • •

وبعد فهأنذا على (جسر بغداد) في نشوة من خمرة الذكرى . أذكر
ما لا سبيل لي الى تلخيصه ، وأحس ما لا طاقة لي على وصفه ، وقد قال
أبو الوليد ، قال لي شعبة : رأيت جسر بغداد ؟
قلت : لا .

قال : فكأنك لم تر الدنيا .

أما أنا فرأيت جسر بغداد ، ورأيت الدنيا . لا أقول إنه أعظم
من جسر اسماعيل ، أو أجمل من جسر الزمالك ، ولكن جسر بغداد سرّاً
آخر ، يعرفه كل من نظر في كتب الأدب والتاريخ ، وقرأ عن جسر
بغداد . هذا الذي جازه القواد الفاتحون ، والفقهاء والمحدثون ،
والشعراء والماجنون .

هذا الذي وقف عليه الرشيد والمأمون ، وأبو حنيفة والشافعي
والفضل بن دينار ، ومطيع وأبونواس ، وعبد الله بن طاهر ، ويزيد
ابن يزيد .

وشهد جلال الخلافة ، وعظمة العلم ، وروعة الزهد ، وضحك المجنون ،
وقوة الجيش .

وجرى عليه نهر التاريخ .

وتداعت على جوانبه القرون .

هذا الذي كان سرّة الأرض !

• • •

أيا حبّذا جسر على متن دجلة بلاتقان تأسيس وحسن ورونق
جمال وفخر للعراق ونزهة وسلاوة من أضواء فرط التشوق
تراه إذا ما جمته متأملاً كسطر غير خط في وسط مهرق^(١)
أو العاج فيه الآبنوس مرقش مثال فيول تحتها أرض زئبق
أما وإنني إن أحببت مصر لأن منها أصلي ، وأحببت الشام لأن
فيها مولدي ، وأحببت الحجاز لأن إليها قبلي ، فأني أحب العراق لأن فيها
أجمل ذِكر الماضي ، وأحب كل بلد يقول أهله :
ولا إله إلا الله محمد رسول الله . لأنه بلدي ، وأهله أهلي .

♦ ♦ ♦

(١) المهرق : الصحيفة .

سر من رأى

كتبت سنة ١٩٣٧

الآن رجعت من التاريخ . إني أرى الدنيا صغيرة خالية ، لأني
كنت في دنيا أكبر منها ، وأحفل بالنور والعطر ، كنت في
(سر من رأى) .

• • •

جلست أدون رحلتي الى الحِلَّة (دمشق العراق) ، ووقوفي على انقاض
بابل (أخت الدهر) ، وزيارتي السدة الهندية (القناطر الخيرية الثانية) ،
وما أولاني الحليّون من ألوان المئن وأنواع الكرم ، فلم أكد أمضي في المقالة
حتى عرضت لي رحلة جديدة الى (سر من رأى) .

ومن ذا الذي لا تفتنه سر من رأى ولا تهيج بلابل أشواقه ؟
ومن ذا الذي نظر في كتب التاريخ ، أو شدا شيئاً من الأدب ، ثم
لا يعرفها ولا يحس أن لها صلة بنفسه ؟

رددوا هذا الاسم الجميل عشر مرات ، بصوت خافت ، كأنه مناجاة
النفس ، بطيء ، كأنه هجس الضمير ، وأنتم تنظرون بهيولكم الى بعيد ،
تحدقون في غير شيء ، فعل من يتذكر أمراً ، ثم انظروا كم يثير في
نفوسكم من ذكر وحوادث ، وفكر وعواطف ، أقل ما توصف به
أنها لا توصف .

وكيف تحتويها كلمات وهي عالم ، وكيف تنتظمها لغة الارض وهي
من لغة السماء ؟

ومتى كان الإنسان ناطقاً مبيناً ؟ إن هذه اللغة رموز ضئيلة لكائنات
عظيمة ، إن العواطف مثات ومثات وما تسمى إلا كلمة واحدة تسمى بها
وكذلك الجمال والحب والطبيعة . لا ، ان الانسان لا يزال طفلاً لم يتعلم
النطق ، ولم يحسن البيان .

. . .

سرّ من رأى . وما سرّ من رأى ؟

هي التي نهضت لبغداد لما كانت بغداد عاصمة الارض ، ولما بلغت
غاية المجد ، وأبعد الأمانى ، وبذت كل مدينة ، وكان فيها مليونان من
السكان ، وكان فيها العلم والفن والسلطان .

نهضت لها تراجمها وتنافسها ، فلم تكن إلا ليالٍ حتى غلبتها وبهرتها ،
وتربعت على دجلة من فوقها ، وسلمتها خليفتها وأبنتها ، وجلة أبنائها ، وكانت
أجل منها وأعظم .

سرّ من رأى ، المدينة الملوكية^(١) التي ولدت فجأة فإذا هي أجل
المدن ، وإذا في كل ناحية منها عرس ، وفي كل بقعة منها عرش ، وإذا هي
تتشع بالنور ، وتتضخخ بالعطر ، وتنام على الزهر ، وإذا هي تبلغ ما لم
تبلغه من بعد الزهراء المدهشة ولا فرساي .

ثم ماتت فجأة فإذا كل ذلك حلم سريع ، وبرق خاطف ، لم تعش

(١) النسبة صحيحة مستعملة من القديم وان كان القياس (ملكية) . ومثلها في النسبة
الى الجمع : رحل انصاري ورسالة اخوانية ومسألة اصولية .

إلا خمسين سنة (٨٣٨ - ٨٨٣ م) وما خمسون سنة في عمر المذنب إلا
خمسون دقيقة ؟

أفرايت الجميلة التي ولدت بأعجوبة فاذا هي الغادة الفتاة ، ثم إذا هي
تقضي بعد ساعة ؟

لم تكذ تزدهر وتستقر حتى نوذي فيها بالرحيل ، والرجوع الى بغداد ،
فهب الناس مذعورين ، يحملون ما خفف حمله ، وغلائنه ، وتركوا المدينة
العظيمة للرياح ، والوحوش ، واللصوص .

قرأت ذلك من حديثها ، ثم لم أعد أعرف عنها شيئاً ، ولم أدر ما صنع
الدهر بها ؟

وأين من يسأل عن الآثار ويبعث عنها ؟

ومن يعرف اليوم ماذا جرى بالكوفة ومسجدها ، والبصرة ومربدها ،
أو يعلم صفة القادسية واليرموك ؟

من يسأل عنها ، وهذا مسجد بغداد العظيم ، ومسجدها الجامع ، قد
ابتلعتهم الدور ، وطغت عليه فلم يبق منه إلا منارته تنادي لو
وجدت سميعاً .

وما كان ذنب هذا المسجد ، وما كان ذنب هذه الآثار ، إلا أننا
نحن وارثوها لا الفرنسيين ولا الانكليز ، أولئك الذين لم يدعوا في
بلادهم شبراً من الأرض فيه جمال من جمال الطبيعة ، أو أثر من آثار
الماضي ، إلا كتب عنه مؤرخوهم ، ووصفه أدباؤهم ، وصوره
مصوروهم ، ونحن الذين أضعنا آثارنا الجميلة ، وهدمناها بأيدينا لنبني
بأنقاضها دورنا الحفيرة .

أسمعتم بالمدرسة النظامية التي درّس فيها حجة الاسلام الغزالي ، وإمام

الحرمين الجوريني ، والتي كانت من اكبر جامعات القرون الوسطى ؟

أتدرون ماذا بقي منها ؟

منارة مهدامة طولها أربعة أمتار ، في زقاق عرضه ثلاثة أمتار ، عند جامع مرجان في بغداد .

والمنارة مائلة قد انحنيت تحت اثقال دار قد ركبها ، وربما هدمت المنارة لتقام عليها الدار ، فمن يدري ؟

وأين من يدرس الآثار ويعنى بها ، وهذا قصر الحضراء في دمشق لم يبق منه إلا اسمه ، تحمله مصبغة في زقاق القباقيب ، بالعجائب الزمان ، صار مشوي التاج ، ومحط العرش ، زقاق القباقيب ! فمن سأل عنه ومن وصفه ومن حفر في انقاضه ؟

أما لو أن هذه الآثار كانت لغيرنا ... إذن طرئت هذه البقاع حرقاً ، ثم أخرجت كنوزها ، ثم ملأت نفوس أهلها عزّة ، ثم كانت لهم اجنحة يطبّرون بها في معارج العلا .

إن تحت هذه الأرض علماً ومجداً وجلالاً ، ولكن ليس فوقها من يحفل العلم والمجد والجلال !

أوليس من أعجب العجب يا قومي ، ان آثارنا لم يبعث عنها ولم يكشفها إلا هؤلاء الاوربيون ؟ إن في جوار دمشق قريتين هما (معلولا وجبّعتدين) تتكلمان السريانية منذ خلقتا^(١) ، فما فكر احد في درس هذه اللغة ومعرفتها ، حتى جاء هذا المستشرق الشاب من آخر الدنيا ، ليدرسها .

بل هذه هي سر من رأى مانقب فيها وكشفها للناس الا هـرستفيلد الالماني الذي حفر فيها سنة ١٩١١ كلاً وبعض سنة ١٩١٣ بإشارة من استاذ

(١) ليس على وجه الارض اليوم من يتكلم بالسريانية غيرهما .

سار وبنفقة المصرف الالماني وبعض كبار الالمات . بدأ الحفر في قصر المتوكل ثم انتقل الى الجوسق والى القصر المعشوق^(١) واستخرج من هذه البقعة الصغيرة ، كرائم الآثار ، ونقائس الأعلام التي انتقلت الى المانيا ، وبقيت لدينا نسخ معدودة من هذا الكتاب الجليل الذي اخرج به هرسفلد في مجلدات كثيرة فيه صور هذه الآثار باهرة مذهشة حقاً . وهو يصف في المجلد الاول نقوش الجدران وزخارفها ، ويقول انها لم تكن تخاو دار من هذه النقوش الجصية البارزة الملونة احياً ، وفي الثالث الرسوم والصور . واكثر هذه الصور بما وجد في حمام الجوسق ، وقد حلت هذه الصور مشكلة قصر المشتى الذي كشف سنة ١٩٠٨

ويتحدث في جزء عن الاواني الزجاجية والحرفية ، وقد بين انه كان في سر من رأى معمل للزجاج ، ومعمل للأقمشة وجدت بعض قطع ملونة من مصنوعاته .

ومن أهم ما تمتاز به المدينة شوارعها ، التي لا تكاد تحوي مثلها (اليوم) مدينة في العالم ، فقد كانت كلها مستقيمة متقاطعة بانتظام عجيب ، والشارع الاعظم ، (وآثاره باقية) يمتد عدة أميال بعرض مائة ذراع ، ودورها التي كان اكثرها كبيراً فيه خمسون غرفة ، وفيه مجاري للماء وبرك ، ومجاري اخرى للماء القذر ، وحمامات وسرايب للصيف ، مبنية

(١) قصر عظيم باقية آثاره وهو مقابل قصر المتوكل على الضفة الثانية لم يعرف احد تاريخه والعامه تسميه قصر العاشق والمعشوق ، وبينه وبين قصر المتوكل آثار سد هائل في دحلة ، وقد بحثت وحقت فوجدت ان تلك الانقاض لقصر المعشوق الذي بناه المعتمد على الله ، قالوا : وكان في الجانب الغربي قبالة سامراء .

على نظام يكفل لها حسن النوبة ، وكان اكثر الدور على طراز واحد ،
فهي ذات ردهتين : ردهة حيال الباب تفضي الى ردهة أخرى مستطيلة عمودية
عليها ، والغرف من حولها .

وقد صيغ هرسفلد رجل عسكري يدعى (لودلف) متخصص برسم
المصورات ، صنع خريطة للمدينة مفصلة بنسبة $\frac{1}{25000}$ وصحبه رجلان
مختصان بالنقوش هما (بارتوس وبيجر) ، على ان ماكشفه هرسفلد لا يعد
شيئاً ، والمتحف العراقي عامل على موالاة التنقيب في الآثار ، وجمعها في
متحف الآثار العربية ، وينتظر ظهور أشياء هائلة .

. . .

سرنا الى (سر من رأى) في قافلة مؤلفة من كبار طلاب (دار المعلمين
العالية في بغداد) ، فجزنا بالاعظمية وعبرنا النهر الى الكاظمية ثم
استقبلنا الفضاء .

ولم نقف في الطريق إلا على (جسر حربي) ، وهو جسر قائم وحده
في الفلاة ، ذو ثلاث قناطر ، عليه كتابة ظاهرة تدل على أنه بني في
أواخر العهد العباسي ، على (نهر دجيل) لبسقي مدينة حربي . فلتفتنا
فإذا النهر قد جف ، والمدينة قد محيت ، والعهد العباسي قد انقضى ، وإذا
كل بلاد الله تتقدم وتزداد عمارة ، وبلادنا تتأخر وتعمن في الحراب ، فوقفنا
معتبرين ، ومضينا مستعبرين .

ولم نسر من بعد إلا قليلاً حتى طلعت علينا (المئويّة) وهي منارة
جامع المتوكل ، عالية تبدو من بعيد كالصرح المائل ، وقد شبت مكانها

من سر من رأى (بروج إفتل) من باريز ، فهي علم البلد ورمزه ، ثم بلغنا دجلة فعبرناه ، ودخلنا (قرية) سامراء نستريح في مدرستها ساعة بعد مسيرة ثلاث ساعات في السيارة ، ثم ولجنا حرم التارينج ، بصحبنا معلمو المدرسة الذين أولونا من أياديهم ، وأرونا من كرمهم ، وحسن أخلاقهم ، ما نذكره لهم بالشكر ، فلولاهم ما رأينا شيئاً ، ولا عرفنا من أين ندخل أو نخرج ، في هذا العالم الواسع !

إي والله هو عالم ، هو شيء عظيم .

سرنا أكثر من خمسة وعشرين كيلاً^(١) ، وما قطعنا إلا نصف البلد من المسجد الجامع الى الدور العليا ، وإن الى الدور السفلى لمثلها ، وإن هذا كله لنصف المدينة ، وعلى الضفة الأخرى مثله .

أنا لا أستطيع أن أتصور كيف كانت هذه البرية الواسعة التي يضل فيها البصر ، مدينة عامرة ، وكيف كان الناس يقطعونها ، وإن بين أولها وآخرها اليوم لمسيرة اثنتي عشرة ساعة على الراكب .

كان أول ما رأينا المسجد الجامع ، وهو كبير جداً لو وضعت سامراء الحاضرة فيه لوسعها وفضل عنها ، لم يبق منه إلا السور وهو مبني من اللبن ، مثل سائر الأبنية العراقية ، تدعمه من ظاهره أبراج مستديرة ، ووراء السور المنارة ، وتعرف عند الناس بالملوية أي المستديرة ، وهي حلزونية الشكل سلتسها من ظاهرها ، مؤلفة من سبع طبقات ، وتحتها قاعدة مربعة أقيمت حديثاً لتقويتها ، طول الضلع من أضلاعها (٤٠) متراً ، وارتفاع المنارة قريباً من (٨٥) متراً ، وقد بنيت على غرارها منارة

(١) بالضبط .

جامع ابن طولون في القاهرة^(١) ، ثم تركت هذه الصفة في المآذن ، وانخذ
لها سلم من جوفها .



تركنا المسجد وسرنا في جهة واحدة ، كيلا نضل وسط هذه
الأطلال ، وكان حولنا تلال من التراب ، كانت قبل الف ومئة سنة
هوراً عامرة ، وقصوراً فخمة ، فجزنا بها حتى بلغنا أنقاضاً حولها سور
كبير ، أخبرنا معلم المدرسة أنها أنقاض قصر أم عيسى ابنة الوراق .

وعلا بنا على قلّ عال وقال : انظروا
فمظرت فلم أر إلا برية واسعة ، لا شيء فيها .
فقال : أمعن النظر وحدق في الأرض . ففعلت فرأيت شيئاً أدهشني ،
وخفق له قلبي .

رأيت تلالاً صغيرة منتظمة ، على شكل دوائر متقاطعة على خط هندسي
بديع ، تمتد الى ما لا يدرك البصر آخره .
فقلت وأنا مشدوه : ويحك ما هذا ؟

قال : ميدان سباق تجري فيه الخيل الى اكثر من خمسة آلاف متر ،
فلا تغيب عن عيني الخليفة وهو يرقبها من مرقبه العالي .



(١) وهي باقية ، في موضع مدينة الفطاح التي بناها ابن طولون (حي السيدة
زينب اليوم) .

ومضينا . . . غرّ على الأطلال ، حتى بلغنا آثار سور كأنه
سور مدينة .

فقال دليلنا : هذا بلاط الخليفة .

فترجلنا وسرنا في طريق مبلط باقية آثاره ، ونحن نتخيل كم مرّ في
هذه الطرق من خلفاء وأمراء ، وكم شهدت من جلال وجمال ، حتى بلغنا
مصيف المتوكل ، وهو أول ما استقبلنا من القصور ، ونسيت أن أقول
أن البلاط بلدة واسعة ، فيها عشرات القصور تبدو أنقاضها ناطقة بعظمتها ،
وفيه المسجد الكبير ، وفيه البركة المتوكلية المشهورة (بركة البحتري) .
فولجنا المصيف ، وهو قصر كبير تحت الأرض ، فيه غرف كثيرة
يفضي بعضها الى بعض ، وفي ساحته بركة .

وقد كدنا نهلك من حرارة الشمس ونحن فوق الأرض ، فلما هبطنا الى
جوف القصر كدنا نشكو البرد .

وكان زميلنا استاذ التاريخ يقص على الطلاب قصة القصر وبنائه وفنه
وقيمته التاريخية ، ولكن واحداً منا لم يكن يصغي أو يفهم شيئاً ، يقول ،
فكفّ وعلم أن الكلام الآن للقلب وعواطفه الحية ، لا للعقل ومقاييسه
الجافة ، وفلسفته الباردة .

كنا نتخيل هذا القصر ، وقد كان يعجّ بالحياة ، ويفيض بالحب .
كنا نسمع الاصوات ، ونبصر الألوان ، ونشم عبق العطر ، ونحس
كأننا نرى الخليفة ، ونشهد مجالس الادب والغناء ، وخلوات الحب .
كم عاش في هذا المسكان من عواطف !
كم خفقت فيه من قلوب !

كم امتلاً بالحياة !

أفيودي ذلك كله بمثل هذه السرعة وهذه السهولة ، وبشبهه العدم ولا يبقى له وجود قط ؟

أي امرئ عرف الحب ، وكابده وأدرك معناه ، ثم يؤمن بأن العدم يقوى عليه ؟

لا . إن ذلك كله موجود !

موجود في زاوية من زوايا هذا الكون الفسيح ، إنه خالد لا يفنى أبداً .

إن في هذا القصر ذكريات جمّة ، تحتويها هذه الجدران الخرساء وهذا اللبن البارد ، إن فيه صدى تلك الهمسات التي كانت تتناجى بها الشفاه ، إن فيه خفقات تلك القلوب ، إن فيه رنات تلك القبل .

إن سؤال الديار ، واستخبار الاطلال ، أقدم فنون الشعر العربي ، فهل ترى الشعراء كلهم مجانين ؟ أتراهم كانوا عابثين ؟

لا ، إن في هذه الاطلال حياة ... إن كل شيء في الوجود حيّ يذكر ويأمل ويشعر ويحلم ، ولكنه لا ينطق ولا يفكر .

آه ... لو أن هذه الجدران كانت تنطق ، وتحدث وتصف ما تشعر به ؟ !

وخرجنا من القصر ، ونحن نحس كأننا قد خرجنا من أنفسنا وانتقلنا إلى عالم آخر ، عالم تمتاز فيه الأحلام بالحقيقة ، عالم شعري ساحر ... فررنا على جب واسع للماء خبرنا دليلنا أن بعض الجاهلين من الأدلاء والتراجمة يدعون بأنه سجن ويختلفون عنه الأكاذيب . وهؤلاء الأدلاء والتراجمة

بلاء أزرق ، وقد سمعت واحداً منهم يشرح لبعض الافرنج تاريخ الجامع
الاموي في دمشق ، فقال لهم ما نصه : « هذه هي المنارة التي بناها
الوليد بن هارون الرشيد لسيدنا عيسى^(١) ، ولذلك سميت منارة عيسى »
وهم يكتبون في دفاترهم ما يقول ، فينشرونه على أنه كتاب علمي
عن الشرق وأعله ، وليس العهد ببعيد بتلك الكاتبة الفرنسية التي كتبت
كتاباً عن دمشق قالت فيه : « يخرج أهل دمشق كل مساء لزيارة قبر النبي
في مكة القريبة ويرجعون ليناموا في دورهم » ! وما قبر النبي في مكة ،
ولا مكة في دمشق ، ولا يخرج أهل دمشق ولا يدخلون ، ولكن الحماقة
ألوان ، والجنون فنون !

أقول : اننا سرنا الى مسجد القصر ، وقد حفر فيه هرسفلد واستخرج
منه آثاراً رخامية ، ومحراباً جميلاً حملها الى المانيا ، ثم انتمينا الى البركة ،
ولست أكنم القراء اني كنت أظن أن البحثري يبالغ في وصفها على طريقة
الشعراء الخياليين ، وأقرر ذلك في دروسي الادبية ، وأقول :

ما عسى أن تبلغ هذه البركة حتى تظل دجلة كالغيري منها تنافسها وتباهيها ،
وحتى تبدو في الليل كأن سماء ركبت فيها ، وحتى أن السمك المحصور
لا يبلغ غايته أبعد ما بين قاصيها ودانيها ؟

فلما رأيت أنقاضها رأيت شيئاً عظيماً ، رأيت بجزراً ، رأيت
ميدان سباق .

دائرة قطرها نحو مائتي متر ، فأكبرتها وهي جافة ، فكيف لو

(١) لذلك الفت كتابي (الجامع الاموي) الذي طبعته وزارة الاوقاف
وستوزعه مجاناً .

رأيتها وهي ممتلئة بالماء ، ومن حولها الغرف المفروشة المزخرفة وقد عقد
فيها مجلس الخليفة ؟

اذن لرأيت أكثر ، قال البحتري ، فرحم الله الشاعر وألهم شعراءنا
تخليد ما يرون من جمال بلادهم ، وعظمة مصانعهم ، على نجر ما خلد البحتري
البركة والجعفري وطاق كسرى !

ثم سرنا الى قصر الخليفة الرسمي ، ووقفنا في ايوانه الكبير ، وهو مبني
على شكل ايوان كسرى ، ولكنه اجمل وأصغر ، وقفنا صامتين خاشعين
لتقاذفنا عواطف وذكريات لا يندى مداها ، نتخيل هذا الايوان ، وكم
عقد فيه من مجالس ، وكم وقف فيه من ملوك ، وكم كتب فيه من تاريخ
نصر المعتصم وقد أخذ كأساً ليشربها فأبلغوه ان امرأة مسلمة أسيرة في بلاد
الروم صاحت : وامعتصماه !

امرأة اسيرة ، وامير المؤمنين يشرب كأسه هائلاً ؟

امرأة تنادي : وامعتصماه ، والمعتصم لا يجيب ؟

إن هذا لن يكون !

وأرى المعتصم يخرج في الجيش اللجب ، الذي تضطرب له سر من رأى ،
وتقيد لثقله الارض ، وتصعق لهوله المرادة ، وتوجف الرواسي ، حتى يحط
على عمورية ، فيدكها دكا ويعود مثقلاً بالمجد والظفر والغنائم .

واسمع أبا تمام يفسد آيته الخالدة التي لم يقل أعظم منها المتنبي^(١) :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

(١) ابو تمام لا المتنبي هو الاستاذ الاكبر في الشعر العربي .

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبيب
ثم انظر حولي فأرى كل شيء قد تبدل :

تغير حسن (الجعفري) وأنسه وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دوره ومقابره
إذا نحن زرناه اجد لنا الاسى وقد كانت قبل اليوم بهيج زائره
(غدا موحشاً قفراً) كأن لم يقيم به أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كان لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها وبهجتها والعيش غص مكامره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت بهيبتها ابوابه ومقاصره
وإن عميد الناس في كل نوبة تقوب وناهي الدهر فيهم وآمره^(١)

لقد هجرته الحياة ونأى عنه النعيم ، وجفاه كل صديق ، حتى دجلة .
دجلة اعرضت عن القصر ، ونأت عنه وقد كانت تسيل على أعتابه ،
وجفته وكانت مع الدهر الدوار ، والزمان الغدار .
حتى دجلة التي أفاضوا عليها المجد ، ووضعوا فيها الحياة ، وأعطوها
أكثر مما أخذوا منها ، حتى دجلة التي جرت ملايين السنين ، فلم تجد أكرم
ولا أعز ولا أعظم ، من أصحاب هذا القصر وبناته ...
حتى دجلة نسيت وخانت^(٢) ! !

• • •

(١) من قصيدة البحري وهو صاحب اجل اسلوب في الشعر العربي .

(٢) غير النهر مجراه وابتمد عن القصر مسافة كبيرة وقد كان يمر امامه .

ثم ودعنا البلاط وسرنا ، وقد اودعنا قلوبنا ، وصبينا فيه نفوسنا ودموعنا .
سرنا في الشارع الاعظم نصف ساعة في السيارة ، والشارع بيّن لاحب ،
عريضه مائة ذراع ، والشوارع تتفرع عنه في نظام عجيب ، وهندسة محكمة
والبيوت قائمة على الجانبين ، وقد استعمل أثرها الى تلال من التراب
كأنها القبور ...

فهررنا على مسكر أشناس ، وهو أشبه بميدان فسيح جداً حول سور ،
حتى انتهينا الى المسجد المعروف اليوم بجامع أبي دلف ، وهو اكبر من مسجد
المتوكل ، وفيه رواق قائم على خمس قناطر ومنارة كالموبة ولكنها اصغر
منها ، فوقفنا عاياه . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فانتهت الرحلة
هنا ، وعدنا ونحن صامتون خاشعون . . وقد علمنا لماذا يريدون منا ان
تجرد من ماضيها ، ذلك لاننا لا نستطيع ان نبني المستقبل الفخم ، إلا
على أنقاض الماضي الفخم .



على ايوان كسرى

كتب سنة ١٩٣٧

خرجنا من بغداد ، فسلطنا على « حبي البتاوين » ظاهر « الباب الشرقي » ، وجزنا على قصوره الشم ، التي تتكىء فيها الارستقراطية الناعمة على الأرائك ، سكري بخمرة الذهب ، وسرنا الى « المنيدى » في الطريق التي تنام على بسط الحقول السندسية ، يحرسها صفان من النخيل ، حتى انتهينا الى « المعسكر البريطاني »^(١) صرح أكسرة اليوم ، فتركناه وأمننا صرح أكسرة الامس ، لنقف عليه ذاكرين معتبرين .

عبرنا نهر « ديالى » وخلقنا القرية جائئة على كتف النهر ، قد دلت رجليها في مائه ، واستقبلنا الفلاة الواسعة ، فما عدنا نرى إلا الفضاء ، حتى إذا سرنا فيما ساعيتين ، طلعت علينا قرية « سلمان » ، تلوح على حاشية الافق ، تضيح وتغيب ، ثم تبينها ورأينا قبة مسجدتها واضحة ، ورأينا بجانبها بناء ضخما كأنه جبل ، فقلت : ما هذا ؟

قال صحبي : هذه قبة سلمان الفارسي ، وهذا إيوان كسرى .

(١) كان كذلك يوم كتب هذا الفصل ، إصار الآن (معسكر الرشيد) تعرف عليه الراجة المرائية العربية ، فالحمد لله .

فقلت : يا للعجب ! أطاف سلمان ما طاف حتى استقر قبره بجانب
الإيوان ، فعدوا متلاصقين ، وبدوا متعانقين ؟

وحششنا « الدراجات » الى القرية ، فبلغناها بعد ساعة .

كانت قرية صغيرة ، نشأت على قبر سلمان رضي الله عنه ، ليس فيها
(إلا مسجده) شيء يذكر ، أما الإيوان فهو في ظاهر البلد ، متربع على
ظهر الفلاة وحيد معزول ، مطرق حزين !

. . .

وقفنا عليه فإذا هو (طاق) عال متهدم ، وجدار شامخ
متصدع ، وإذا هو ضخيم فخيم ، ولكنه عار موحش ، ليس فيه
صورة ولا نقش .

لا صورة انطاكية التي تروع بين روم وفرس ، ولا أنوشروان يزجي
الصفوف تحت الدرفس ، ولا عراك الرجال بين يديه في خفوت
منهم وإغماض جرس ، من مشيع يوي بعامل ربيع ، ومليح من
السنان بترس^(١)...

لقد عا الدهر الصورة ، كما عا أهلها ، ودار الزمان دورة أخرى ،
فأصبح حاضر البحتري ماضياً ، وعيانه أثراً .. ذلك لأن الماضي نقطة
واحدة ، تتلاقى فيها الأبعاد ، وتضيع المسافات ، وتفتى الدهور .

نقرأ قصيدة البحتري ، ونرى الإيوان ، فنحس أنهما قد التقيا في عالم
الماضي ، وضاع ما كانت بينهما من عصور ، كما التقت آثار « سر من

(١) من قصيدة البحتري .

رأى ، بأطلال بابل ، فكان حكمهما في الخيال واحداً ، وأثرهما في النفس واحداً ، وكما التقت في أبصارنا ونحن قادمون على القرية قبة سلمان بالايوان .

ومن لعمرى يدرك الزمن الذي كان بين آدم ونوح ، وإبراهيم وموسى ، وبليزيس والزباء ، وهوميروس وأفلاطون ، وحروب طروادة وفتوح الاسكندر ؟ إن الحوادث كلها أمعت في المضي ، ضاعت من بينها الأزمنة واهت الأبعاد .

* * *

وليس يهيج النفس ويشيرها مثل أطلال الماضي ، والوقوف بآثار الغابرين ، ففيم روعة البقاء ، وهول الفناء ، وعبرة الدهر .

وهي نوافذ تطل منها النفس على عالم المجهول الذي تحن إليه أبداً ولا تنى تقرر بابه ، فتتهجر فيها ساعة من قيود المادة ، وتطير في مسارب الأحلام .

ولقد وقفت على الأهرام ، ومررت على الحديدية ، وجلست في العتيق ، وعرجت على حطّين ، وزرت بعلبك ، فكان شعوري في ذلك كله شعوري اليوم وأنا في المدائن ، أمام إيوان كسرى ، أستعظم الأثر ، وأعجب بجلاله ، وأكبر القدرة التي أنشأته ، ثم أعود بفكري الى الماضي ، فأحس بأن صفحته تفتح أمامي ، فأرى حقيقة "مشاهدة" ، كل ما قد قرأت في الكتب ، وأتخيل أني مع الغابرين أسمع وأرى ، فأراني قد عشت دهوراً ، ثم أقابل وأعتبر ، ثم أفعل عن نفسي ، وأجول بفكري ونخالي في آفاق كثيرة لم أرها من قبل .

في الآثار الباقية ، والامم الماضية ، يلتقي أعظم شئئين وأجلهما :
الزمان والمكان ، فتلمس القرون تنحدر على صخر الهرم ، أو أعمدة
بعلبك ، أو آجر الايوان .

هذا الآجر الذي حمل أعباء القرون السبعة عشر ، يالروعته وجلاله !
إني لأحتقر نفسي وأنا قائم بقامتي القصيرة الهزيلة ، حيال هذا السكّان
الجبار الهائل ، ثم أعود فأرى كل شيء دوني حقيراً ، أنا الحيّ ، وأنا الباني ،
وما هذه كلها إلا أثر من آثارني ، ليس لها لولا فكري وجود ، ولا لوجودها
معنى ، ثم أراني أحقر منها وأصغر ، بجانب الله الباقي ، وأرى هذا الفكر
وما أنتج ، مخلوقاً من أصغر مخلوقاته ، لا إله إلا هو .

وأطفت بالديوان ، ووقفت على بابه ، ثم دخلت إليه من الصحراء
فإذا ... فإذا أنا قد خرجت الى الصحراء .

الصحراء الصامّة صمت الموت ، الموحشة وحشة المقبرة ، الممتدة
امتداد الزمان .

وقفت أستنشق عبير المجد ، وأتسمع نشيد العظمة ، فما سمعت إلا صفير
الرياح ، ولا نشقت إلا رطوبة الفناء .

لمست الايوان فما أحسست إلا برودة الحجر ، تسلقت الجدار حتى كُلت
رجلاي ، ولم أبلغ نصفه ، فجلست على لبنة بارزة لاستريح ، وتلفت ،
فاذا الافق الواسع الرحيب ، واذا الناس كالنمل ، واذا القرية كأنها كرومة
من الحجارة ، مكروّمة في أعماق الوادي ، واذا دجلة تجري بعيداً تلبس
حُلّة من نور الشمس فتبدو لامعة تزبغ منها الابصار ، وإذا أنا وحدي ،
معلق بين السماء والارض ، فغَشَت نفسي ، وأخذني الدوار ، وهممت
بالسقوط ، فأغمضت عيني كيلا أرى شيئاً .

أغمضت عيني ، وفتحت قلبي ، فرأت البصيرة ما لا يراه البصر :
رأيت أني قد ذهبت أخطى أعناق القرون ، وأطري سجل الزمان ،
وأدير بفكري دولاب الفلك ، فيكر واجعاً .

ازخرفت هذه الجدران العارية وأخذت زينتها ، وعادت هذه
الأبواب ، وأسدت عليها ستر الوشي والديباج ، وتحلّت هذه السقوف
بالصور والنقوش ، وتدلّت منها سلاسل الذهب تحمل الثريات
المرصعة بالآؤلؤ .

عاش الأيوان ، وقام في صدره سرير أنوشروان ، ورجع المجد
وعاد السلطان .

وحلّت الحياة في هذه الصحراء ، فنبتت المدائن والقصور من الأرض
نبعاً ، ونبتت منها نباتاً ، فنمت في لحظة وأورقت وعلت واستطالت ،
ولوّّن الخيال هذه البرية السكّاحة بألوان الزهر ، فعادت حدائق وبساتين
كانت لهذه المدائن كالإطار ، فرأيتها أعظم المدن ، وقصورها أفخم القصور ،
والأيوان أجلّ صروحها وأعلى دُراها .

ورأيت هذه الأبواب التي كانت منذ ساعة تفضي من الصحراء إلى الصحراء ،
مفتحة للرياح والذئاب ، قد قام عليها الحجاب ، ووقف دونها الملوك ،
وحلّت على أعتابها المجد .

والجدران التي كانت عارية مصدعة ، قد شيمخت وبذت وعزّت ، حتى
غدّت والطير تخشى أن تطير فوقها ، أو تحوّم في سمائها .

ورأيت دجلة التي كانت منذ ساعة تجري في البادية بعيدة ، بعيدة عن
الأيوان ، معرضة عنه ، لا تلتفت إليه ولا تأبه له ، قد غدّت ساقية ،

تمشي خاضعة وسط المدائن ، وتنحني لتعقد على كتفها القناطر والجسور ،
وتفتح صدرها لتضم ظلال هذه القصور ، وهي تستنقع فيها في أمسيات
الصيف الحارة !

ورنوت بعيني الى هناك ، الى الحيرة ، فاذا الخوَرُ نَق السامق يعنو
للأيوان ، كما يعنو صاحبه لربه ، ورميت ببصري الى بعيد ، الى
الجزيرة ، فاذا فيها أشباح تبحر وتروح خلال الضباب ، تموج كأنها في بحر
واسع ، وكان خيامها سفائن يحملها الموج ، ويمشي بها مدّ وجزر ، ولكن
هذه الأمواج تنكسر على صخرة الأيوان ، ثم ترتد ضعيفة وانية ، والأيوان
مشغّرة عاتية .

لا ملك أعظم من ملكه ، ولا سلطان أعظم من سلطانه ، ولا إنسان
أعز من ربه .

وأمتد ببصري الى المشرق والمغرب ، فلا أرى كالأيوان ثروة وجاهاً
وعظمة ومجداً .

ولكن ... مه !
إن في البادية شيئاً جديداً .
لأنها تضطرب وتمتز .
إن فيافيها تتنفض بالحياة .

ها هو ذا النور يشق الضباب الكثيف ، حتى يلمع كالبرق الخاطف ،
بين قصور المدائن ، وتحت أقبية الأيوان .

لقد ضرب محمد ﷺ صخرة الخندق ، فأضاءت المعجزة الأيوان ،
فوعده أتباعه وقال لهم ؛ هذا الطريق .

يا للعجب العجيب !

إن هذه القرية الملتفة في ألحقة الرمل ، النائمة على صخور الحرة ،
المتوسدة سفح أحد ، وجوانب سيلع ، تريد أن تأكل المدائن !
بلغ كسرى الخبز ، فضحك حتى استلقى . ثم جاء كسرى
الكتاب ، فعبس وبسر ، وأعرض واستكبر ، ومزق كسرى كتاب
سيد العالم .

لقد نطق سيد العالم بالحكم النافذ : ليمزقنّ الله ملك كسرى .

• • •

وفتحت عينيّ ، فاذا الحلم قد تصرّم .
غاضت المدائن في الأرض ، ونزعت الجدران ثيابها ، وابتلعت
الصحراء زهرها ووردها ، وعادت قاحلة ليس فيها إلا هذه الانقاض ، جاثية
على ظهرها ، قد حطمها الكبير ، وثقلت عليها السنون ، فانحنّت حتى
تسلق صبية القرية سطحها يلعبون عليه .

• • •

الصبية يلعبون على سطح الايوان !
أين كسرى يرى ما صار اليه إيوانه ؟
أبناء العرب يتلمهون بمجلسك يا شاهنشاه ! لقد قوّض المجلس ، وثلّ
العرش ، وهوى التاج ، فما أنجدك الجند ، ولا أغنى عنك الغنى ، ولا حمتك
الحمية ، ولا آواك الايوان !

لقد مزق البدو ملكك يا كسرى ، وما هذا عجيباً ، فالتمزيق
أسهل من الترقيع ، والهدم أهون من البناء ، ولقد هدم البرابرة من قبل

عرش الرومان ، غير أن هؤلاء البدو (يا ملك) أسسوا حضارة خيراً
من حضارتك ، وبناءً أجل من بنائك ، وحكموا أعدل من حكمك .
لقد أثرت حضارتهم حضارة قرن العشرين ، وحضارتك لم تثمر شيئاً .

لقد بنت ديموقراطية عمر ، الذي كان ينام على التراب ، ويلتحف
بالبرنس ، ويؤدب بالدرة ، ويعين الفقير ، ويخدم العجوز ، وينصف من
نفسه ، لقد بنت ديمقراطية دولة .

أما جبروتك ، وعظمتك الجوفاء ، واستعبادك الناس ، فلقد
هدمت دولة .

هذه بغداد الاسلام ، فيها أربعمئة وخمسون ألفاً^(١) ، وهذا إيوانك
تصفر فيه الرياح الباردة ، صفيق الفناء المرعب ، وتنشد فيه الطبيعة
نشيد الموت .

منذ الذي كان يفكر أيام عز الإيوان ، أن صبية العرب ستلعب
على أنقاضه ؟

منذ الذي يفكر اليوم بأن أطفال طرابلس^(٢) ستقفز على أطلال روما؟

لا تتعجبوا من شيء إن الليالي يلدن كل عجيبة !

وليعتبر الطغاة ، فلقد كان كسرى (يوم كان كسرى) أضخم سلطاناً ،
وأعظم بنياناً ، وأكثر أعواناً فأباد الزمان السلطان ، ودك البنيان ،
وأهلك الأعوان .

. . .

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٧

(٢) لقد تحقق نصف الحلم ، فاستقلت طرابلس ، وطرد منها الطليان .

اعتبروا فهذا صرح كسرى ، خال مؤحش ، وهذا قبر سلمان ،
هامر مانوس .

قد مات القصر وعاش القبر ، قصر كسرى شاهنشاه الذي كانت تقوم
على بابه الملوكة ...

... . . . ضاحين كسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
قدمات وغدا قبراً في الفلاة ، وهذا القبر ، قبر فارسيّ من عامة
الناس ، يصبح مشوي الحياة ، تلتف به البيوت ويؤمه الزائرون ، يقفون
حياله خاشعين ، ثم يعودون ولا يلتفتون الى الايوان وبينهما ثلاثة ذراع !
أين كان سلمان ، من كسرى أنوشروان ؟

أين كان من وزرائه وأتباعه ؟

وأين كان من خدامه وحشمه ؟

صه ! لقد خلد سلمان بالاسلام فكان أعظم من كسرى .

أما بعد فقد تكون الاهرام أضخم وأفخم ، وأعمدة بعلبك أجل وأجل ،
ولكن للايوان معنى آخر .

هنا كان يستقر جلال الماضي كله ، هنا كانت عظمة الملك ، وجبروت
السلطان ، هنا كان الذي يستعبد الناس فيؤكّله الناس ، لم يبق من ذلك
كله شيء !

. . .

وكانت الشمس قد جنحت الى المغيب ، فنزلت ، ووقفت أودع
الايوان ، فاقترب مني سائل أعمى ، وجعل ينفخ في ناي معه ، نغمة حزينة
مؤثرة فكان لها في تلك الساعة ، في صمت الصحراء ، ووحشة الايوان ،
وغروب الشمس ، أثر في نفسي لا يوصف ، فقلت : آه ليتني كنت
شاعراً !

تورة دجلة

كتبت سنة ١٩٣٧

« ازدادت دجلة يومي الاربعاء والخميس ٣ ، ٤ صفر سنة ١٣٥٥ زيادة هائلة لم تكن منتظرة ، وغدت بغداد عرضة للفرق بين كل لحظة واخرى ، وسبق الناس كلهم للعمل على اقامة السدود ، ولم تغض في بغداد ليلة الخميس عين ... وكان شيء عظيم ... »
كانت تجري في الوادي حاملة سكري ، غارقة في بحر من الحب والشعر ، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعطرة المعسولة التي تطبعها الشمس على وجنتها الصافيتين كل صباح ومساء ، تحطفها منها في غفلة من الكون ، فلا يبصرها إلا الشفق الذي يطل من نافذة الافق يرميها بنظرة الكاشع الحاسد ، فيحمر وجه دجلة الفتاة من الحجل ، وتغض عينها من الحياء ، ثم تسرع في جريها ..

وكانت تتلقى بين ذراعيها العاشقين المدلين^(١) ، كلما دجا الليل وأطفى مصباح الكون ، وهم في الزوارق ذوات الاجنحة البيض التي تشبه قلوبهم في بياضها وخفقاتها ، فتحدث عليهم ، وتحفظ أسرارهم ، وتمنعهم الحلوة الحلوة الآمنة ، وتغمر نفوسهم بالجمال والشعر ، حتى يغيبوا عن الوجود في حلم فائق بعيد .

وكانت تغضي عن هذا النخيل العاشق ، وقد تعانق كل زوجين منه ،

(١) اعني الازواج الذين اجتمعوا بعقد الشرع ، لا الفساق الذين اجتمعوا بعقد ابليس .

وتلامسا بالشفاء ، واستسلما الى الغيبة المنيفة ، وعن هذه القصور التي تفتيات
ظلاله ، سكرى بخررة الجمال ، قد ضمت أحفائها على حياة لذة وادعة ،
ماؤها الحب .

وكانت دجلة جمال العراق ونعمته وحياته ..

وكننت أذهب كل مساء ، الى (جسر مود) ، أنحدر اليه من الرصافة ،
أمشي في طريق ضيق ، كأني أهبط وادياً من أودية بلاد ذي الحبيبة ، ثم
أصعد حتى أبلغ ضفة الكرخ ، فأسلك شوارع الصالحية ، حتى اصل الى
المطار .. حيث أبقى ساعة شاخصاً الى الأفق البعيد ، اتبصر فيه طيف بلدي
وأنحس نسيجه فأشم فيه شذا الغرطة ، وأنشق ربا نشرها العطر ، وعرف
آسها ونسرينها ، وفلها وباسمينها ، ونرجسها ورباحينها .. حتى اذا قضيت
من ذلك وطراً ، عدت وقد خلا الجسر ، فحييت دجلة ، وصبت
في أذنيها آلامي وأحزاني ، واستنحت الراحة والاطمئنان ، ثم مضيت
الى وكري المتعزل ، في (الاعظمية) بنفس هادئة كدجلة ، مطمئنة
كاطمئنانها .

. . .

وذهبت في مساء الامس ، كما كنت أذهب ، فاذا الارض قد بدلت
غير الارض ، واذا الجسر الذي كان وادياً ننحدر اليه ، قد أمسى جبلاً
تسلقه^(١) وحار أعلى من الشوارع وقد كان تحته ، واذا الناس يقبلون
عليه ، فأقبلت معهم وعلى وجهي من الدهشة والخيرة مثل ما على وجوههم

(١) كان الجسر قائماً على عوامات يصعد مع الماء ويهبط معه ولم تكن قد انشئت هذه
الجسور المستقرة .

من الروعة والفرع ، وفظرت فاذا النهر الذي كان يجري في الاعماق هادئاً
متطامناً حالماً ويبدو كأنه صفحة المرآة ، لا تنداح عليه دائرة ، ولا تموج
فيه موجة ، قد علا وارتفع وعاد ثائراً هائجاً ، له هدير وهدرة ، قد علاه
موج كالروابي ...

واذا هو قد نسي سنه ووقاره ، وأضاع حلمه وعلمه ، ورجع شاباً مجنوناً
أهوج ، يتفزع ويصرخ ، ويقرع الأرض بقدميه ، ويضرب بقبضتيه
القويتين الخفيفتين ، أبنية الشاطئ الآمن . ويعبث بهذه الكرات الحديدية
الضخمة ، التي أقيمت لتثبيت الجسر العائم والتي ترجع بالقناطير ، وتزف
الصخور الجلاميد ، ويقذف بها هنا وهناك كما يقذف الصبي كرتة ..

واذا هو مرعب حقاً ، يدخل الروح على اجلد الرجال .
وكانت الوجوه كالحة ، قد ارتسمت عليها سمات الذعر الشديد ،
والماء يرتفع .

لم يبق بينه وبين الشاطئ إلا شبر واحد .
لقد بلغ عمق المياه خمسة وثلاثين ذراعاً وعشرين معشاراً ..
إنه لا يزال يرتفع .
لقد صاقب الشاطئ .
إن بغداد في خطر .

. . .

وطارت كلمة الخطر على اللسنة ، ففزع الشعب ، واهتمت
الحكومة ، ووضع قانون المساعدة الالزامية ، فابتدر الناس الشاطئ ،

واستبقوا الى العمل ، يقيمون السدود ، ويضعون للمجنون القيود ، ولكن
المجنون لا يبالي بقاء الذباب .
لانه يقتل أمة منها بضربة واحدة .

. . .

ان النمر^(١) يقفز في حبسه ويشب ، لقد جن .
لانه يريد أن يخرج فينبعث في الارض .
يريد أن يمشي الى هذه الجنات الظليلة ، التي طالما أمدتها بالحياة ، وحمل
اليها النعمة ، ليحمل اليها الموت !

وبدا الصراع المهول بين الطبيعة والإنسان ، وأمسى المساء على بغداد ،
وهي قائمة على قدم وساق ، ليس فيها من يبيع أو يشتري أو
يلهو أو يلعب ، أو يطعم أو يشرب ، ليس لها إلا غاية واحدة ، هي
النجاة من الفرق .

وكنتم قد بلغت منزلي فصعدت السطح فانحسرت امامي صفحة
النهر ، وهو يلتوي من حول الاعظمية كالافعى ، يطيف بها كالقضاء
النازل ، وقد استرخى عند المنحنى وتمدد على الحقول والدور التي هجرها
أهلها ، فصار عرضه أكثر من ألفي ذراع .. وصار بجرأ خضبا ، ولكنه
يركض دفتاعاً يحمل في طياته الموت والفرق والحراب .

وكانت حمرة الشفق تخالط الماء ، فيلهب فيبدو كأنه اتون مستعر ،
أو كأنه جهمم الحمراء .

(١) اسم دجلة بالفرنسية Tigre وبالانكليزية (تايجرس) ومعناها النمر .

وبسط الليل ثوبه الاسود على الدنيا ، فأخفى نحته ثمانية وأربعين ألف
شاب ، يشتغلون لينقذوا بغداد من الفرق المحقق ، ومن ورائهم اربعمئة
الف قلب ، تحوطهم بالرعاية والحب .

واستمر الصراع والهول .

وكان الناس من الفزع والذعر كأنهم في يوم القيامة ، غير أن المرء في
يوم القيامة يجد ما يشغله عن أمه وبنيه ، وصاحبه وأخيه ، وهنا أم حائرة
موله قد ضاع منها ولدها في وسط الزحمة فهي تعدو وتصيح من غير وعي
لا تدري أهر من الاحياء ، أم افترسه هذا النمر الجبار .

وهنا بنت تفتش عن أمها ، وولد ينادي أخاه ، وأسرة قد هيات
متاعها ووقفت على باب الدار تنتظر الساعة الرهيبة التي يطغى فيها الماء فيدك
دارها وما فيها ويدعها فقيرة مسكينة ، مسكنها الشارع .

وشباب عصفت النخوة برؤوسهم فهم يقدمون ، يتسابقون
الى الخطر .

وتلاميذ قد دفعتهم الحمية فأقبلوا يتبادرون الموت ، والجنود يعملون في
كل مكان بهم الأسود .

كان الصراخ يملأ الجو : هتاف الشباب ، وانغام الجند ، وصياح
النساء ، ونداء الاولاد . والنهر فوق ذلك كله يهدر هديره المستمر المرعب ،
فيكون له في هذا الليل دوي خفيف ، والحركة متصلة ، والشوارع ممتلئة
بالناس .. ولكن السلامة توالى ، ووقف النهر عن الارتفاع ، ولم يقع
البثق الذي كانوا يخشونه ، وكان قد تصرم الهزيع الاول من الليل ، فأمن
الناس وتفرقوا إلا قليلاً قاموا يحرسون النهر ، ودخلوا بيوتهم وولجت داري
استريح ، فما لبثت أن ذهبت في رقدة عميقة .

رأيت فيها المياه تنساب في كل جهة ، تغني أغنية الرعب ، تقتلع البيوت
ثم تلقي بها الى بعيد ، وتلج في باطن الارض ثم تفلها بما عليها ، وتصعد في
الجو ، ثم تنزل كالبلاء المصوب . ثم انصدع صدع عظيم وهويت الى قعر
الهاوية ، وكان حولي مئات من النور والفهود والافاعي ، وسمعت رعداً
شديداً ، ورأيت برقاً ومطراً ، ثم عادت الصخور تجري تدحرج آلافاً
من الصخور ..

ففتحت عيني .

واذا الحلم حقيقة ، واذا الصيحة في الحيّ ، والقيامة قد قامت ،
وصفارات الحراس ، وأبواق الجنود تصدح باستمرار ، والنساء يولولون
ويعدون ، والاطفال تبكي وتركض في كل مكان ، والرجال تصيح طالبة
النجدة ، وتبينت وسط الضجة الكلمة الرهيبة : كسر النهر .. النهر انكسر !
وتدفق سيل العرم !

إن هذا النهر الذي جاء من قم الاناضول الشاهقة ، وسلك على السهول
الممرعة ، والصحارى المجربة ، قد تعب من سيره الطويل المضي ، فجاء
يستريح على هذه الحقول التي زخرها الربيع ، وأزهر فيها النارنج ، وفتح
الورد والقرنفل والفل ، واترع نسيمها العطر ، فيحيل ذلك كله الى
صحراء قاحلة .

جاء يغرس في هذه الحياة الرخية السعيدة بذور اليتيم والفقر والنكد .
ولكن الذئب علينا ، لوأنا أنشأنا له مأوى يستريح فيه ، وسيراً
ينام عليه ، لمجمع فيه الى ايام الصيف ، ثم نخرج بالبركة واليمن الى
اراضينا وبلادنا !

• • •

تركت الدار وخرجت اسبح في هذا الخضم من الناس ، أدفع النساء
والشيوخ والشباب ، لأصل الى الشاطئ ، فأعمل عملاً .
ولست أدري ماذا أعمل ؟ ولست أحسن السباحة ، ولست أعلم
ما الفائدة من ذهابي ...

ولم أفكر في شيء من ذلك ، لان الانسان لا يفكر في ساعة الخطر ،
ولمّا يعمل .

فلما وقفت على الصدع هائي ، وارعيت ان النمر قد أفلت من القفص ،
وخرج يعدو مجنوناً مستطار اللب ، كاشراً عن انيابه ، يزجر ويزار ،
ويهرق ويرعد .

ان الماء يدفع الى العلاء بقوة الديناميت ، ثم ينزل على الحفول ، فيمضي
مكتسحاً كل شيء في طريقه :

يقنع الاشجار الضخمة ، ويقذف بها كأنما هي عيدات الكبريت ،
وينسف البيوت كأنما هي علب من الورق ، ويتدفق من كل جهة ..
وقد ابتلع صوته المدوّي كل ضجّة ، وملاً الاسماع بتوتيلة الموت
المستمرة ..

ركان لمنظره في ظلمة الليل صورة لاتوصف ..

واقدم الناس ، يسابقون الماء ليقبضوا في وجهه السدود . ليقيدوا هذا
النمر الهائج ، بحمية منقطعة النظر ، وحاسة نادرة المثال ..

واقدمت انخوض هذه الابهة من الناس ، لأصل الى هذه الابهة
الطامية من الماء .

أمشي في ظلمتين : ظلمة هذا الحشد المزدهم ، وظلمة الليل البهيم .
أعرض لرهبتين : رهبة الليل وسواده ، والسيل واندفاعه .

أصغني الى حنين : لحن الروع على ألسنة الناس ، ولحن الهول على
لسان النهر ...

ولم أنقش شيئاً .. إنها ساعة الخطر ..

بوركت يا ساعة الخطر !

أنت لحظة الانسانية ، أنت التي تورق فيك اغصان الحب ، ويزهر
فيك الاخلاص ، ويعود الناس فيك إخواناً متحابين ، قد خرجوا من
اطمائهم ، ومات في نفوسهم الحسد والبغضاء ، وعاش فيها الحب والتضحية
والاخلاص والوثام .

.

تقدمت الى الامام ولكني لم اصل الى شيء ، لان الناس كانوا
يستبقون العمل ، ويرعون الى الموت ، كأت العمل غنيمة ،
والموت وليمة ...

وكانوا يصرخون صراخ الحمية ، ويهتفون باسم الوطن والمروءة
والشجاعة .

ومرت على ذلك ساعة كاملة والصدع يتسع ، والماء يزداد اندفاعاً ،
فكثت الايدي النشطة ، وجمدت الصيحات والانشيد على الشفاه ، وخامر
الناس اليأس ..

هنالك انتهت فاذا انا اسمع النشيد الذي ارتقبه واصبو اليه ، ليس نشيد
الوطن والمروءة ، ولكنه اجل واقي ، النشيد الذي له قوة السيل ،
وعظمة البحر ، وبهاء الشمس ، وحلاوة الصخور .
النشيد الذي لا يقوم له شيء .

النشيد الذي كان اجدادنا يتفنون به كلما حاقت بهم شدة ، فيدكون به
ل حصن ، ويكتسحون كل عدو ، ويخلصون من كل خطر .
النشيد الذي يحيل الجبان بطلاً ، واليأس املاً ، والطفل رجلاً .

ذلك هو نشيد الرجال والنساء والاطفال بصوت واحد يجري على قرع
طبل ، فيشقى الليل ، ويخشع له كل من يسمعه ، حتى النخيل والحقول
السحاب والنجوم ، وهذا النمر الثائر .
الله اكبر - الله اكبر - لا إله إلا الله .
الله اكبر - الله اكبر - والله الحمد !

. . .

وبدأ الصراع كرة ثانية .. واقبلوا على العمل بهم لا تنثني ، وقلوب
تلين ، وسواعد لا تكلن ..
وصبّ النشيد في عروقهم روح الظفر .. فظفروا ..

. . .

وعندما كانت الشمس تطبع اول قبلائها على جبين الكون كان الموكب
لافر قد رجع ، يحمل اجمل ازهار الرياض التي انتقدها وحماها من
رق .. يمشي فيه الجنود والطلاب ، بصفوف منتظمة ، قرأت فيها ارواح
شعر ، الحياة .. كما تلوت في هذه الجماهير المنشورة في كل مكان
لغ « نثرها » ..

وكان الإشراف يكسو الوجوه ، وغناء النصر يرقص على اللسنة .

فوقفت أحيي هذه المراكب الماجدة ، حتى غابت عني في طريقها
الى بغداد :
الف تحية ايها الابطال الذين مشوا الى الموت ، لينقذوا بلادهم
من الموت .

الف تحية ايها الشعب القوي العامل الجريء .
الف تحية ايها الطلاب المبرّون الذين حموا الفؤوس والمعاول ، واقاموا
من جسورهم سداً في وجه هذا السيل الطامي . .
الف تحية ايها الجنود البواسل ، يا حماة الديار ، يا من وطنوا
نفوسهم على محاربة كل من يريد ببلادهم شراً ، سواء لديهم اكانت
جباراً من جبابرة الانس ، او عفريتاً من عفاريت الجن ، او قوة
من قوى الطبيعة . . .

لكم مني الف تحية والف سلام !

★ ★

صورة ...

« إن وجدت في هذه الكلمة صراحة في الوصف ، فلا
تلوموا الطبيب فانه يصف المرض ، ليعين الدواء »

كتبت عام ١٩٣٧

كان شاباً متأنثاً ، قد أصيب بمرض التجبّل ... فلم يكن يجيء الى
المدرسة إلا متزيناً مستعداً استعداد عروس^(١) ليوم زفافه ، قد صقف شعره
ودهنه وعطره ولبّده ، وعقر به على صدغيه ، وجمل وجهه وصقله وصنع
به ما است أدري ، وكشف عن أعالي صدره وأحاط عنقه بهذه العقدة ، التي
يفتنّ في عقدها ، واختيار لونها ، وانساقها مع الحلة التي يلبسها افتناناً ، ولا يزال
أبداً يده اليها يتلّسّسها ، ويصلحها ويطمئن عليها .

وكان اذا نظر غض الطرف من الحياء ، ودانى بين جفونه ،
واذا تكلم تكلم بصوت حالم لين ، كان الفاظه تقول شيئاً ، ولهجته
ونبراته تقول شيئاً آخر ، تقول : إن رجولة صاحبي رجولة مزورة !

واذا مشى تشفى وتخلّص وتكسّر ، وماج جسمه مَوْجَاناً ، وذهب
كل عضو منه في فاحية كان جسمه متفكك ، قد تقطعت أوصاله ، وفصمت

(١) العروس في اللغة للذكر والانثى .

عراه وانحلت لوالبه ... واذا دعوته اقبل اليّ يتهادى ويميل ، فاذا وصل الى حيث اكون وجد اقرب متكياً فاستند عليه ، كأنه بناء لا يقوم إلا اذا استندته بدعامة ، واذا كلمته سجع كأنه فتاة في الحدر ، وأجاب بصوت خافت يكاد يبتلع الخجل ، فكنت ازعق في وجهه من الغيظ ، ثم أطرده طرداً .

ولم يكن ينصرف الى علم أو يقبل على درس ، لان عقله قد سال على جوانب جسمه خرقاً وثياباً ، ولم يبق منه في داخله ، ما ينفع لعلم او درس ، فهو دائماً ينظر في عطفه ، ويتأمل ثيابه ، ويخرج من جيبه مشطه ومراآته ، ولولا بقية من حياء لأخرج ابيضه واحمره وقلم شفقيه .

وكنت أراه في باحة المدرسة فأراه غريباً عن هؤلاء الشباب لا يطيق حراكاً ، ولا يحسن لعباً ، ولا يدفع عن نفسه اعتداء ، وما فيه من الرجولة إلا اسمه وبذلته .

♦ ♦ ♦

وحاولت اصلاحه ، وتعهده بالنصح والارشاد ، فكنت كمن ينفخ في غير خرم ، فأبست من اصلاحه وكرهته وأبغضته ، وجعلت أزوي بصري عنه ، وأتناساه وأهمله ، ثم افتقدته فلم أجده ، ثم علمت أنه قد فارق المدرسة .

ومر شهران ، ثم رأيت في مكانه طالباً جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندي يلبس الثوب العسكري وعلى وجهه طابع الرجولة : له شاربان كاملان ، وأثر اللحية ظاهر على خديه ، والقوة والصرامة

بأديتان في عينيه وملاحه ؛ وكان قروي النظرات صفاً جهر الصوت ،
ذكياً مقبلاً على الدرس ، فظناً المعياً ، وكانت سريع الحركة جم النشاط ،
إذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة ، يطا الأرض وطاً شديداً ، وقد
نصب قامته ورفع رأسه ، فإذا قام بين يديّ ، قرع رجلاً برجل ثم رفع
يده بالسّلام لا كما يرفعها مثلي أو مثلك ؛ بل كما يرفع يده الجندي
بالسيف يستلّه من قرابه ، وإذا كلمته أجاب بجرأة وادب ، وكنت
أراه في ساحة المدرسة ، فأراه على اجتاده وإقباله على العلم ، قوياً
نشطاً يصارع الطلاب ويباطحهم ، فإذا تمكن منهم وعلا عليهم ، عفا عنهم
وأبقى عليهم ، فكنت أعجب من قوته ونبله ، وعلمه وفضله ، وأكبر
فيه هذه الصفات .

. . .

ثم انني أحببت أن أشبعه وأضرب منه للطلاب مثلاً فتكلمت وأثنت ،
وقلت : كم بين هذا وذاك من فرق . ١١
فصاح الطلاب : ومن هذا ومن ذاك ؟ إنهما شخص واحد !
قلت : ويحكم ! فأي معجزة هذه التي بدلته شخصاً آخر ، وأنشأته
إنشاءً جديداً ؟
قالوا : يا أستاذ ... إنه تدرب على الجندية .

. . .

يوم الفتوة في بغداد

كتبت سنة ١٩٣٩

ذلك هو يوم الجمعة ٢٧ كانون الثاني، الذي انتقلت فيه بغداد كلها، فاستقرت في شارع الرشيد وشارع غازي ، لتري مركب الفتوة الذي يصل بين غازي والرشيد ، فينشئ المجد الجديد ، على أساس المجد التليد ..

وقد أتى الناس من كل فج عميق ، ليشهدوا بأعينهم كيف غدا أبناؤهم أسوداً صفاراً ، أشبالاً ، يدافعون عن الحمى ، ويحمون العرين .. ويبصروا ببصائرهم الآتي المجيد ، والمستقبل الزاهر ، وقد أشرق فجره من عيون أولئك الفتيان ، التي تهرق بريق الحماسة والاخلاص ، وقلوبهم التي تنطوي على التضحية والثبات ، وألسنتهم وهي تنشد النشيد الذي يوقظ المرقى ، ويصب الحياة في الصخر الصلب ، وأيديهم التي تمز البنادق ، تقول بلسان حالها : إنا نحقق ما نقول !

مرحى يا فتيان العراق ، عشم للعروبة ، وسلمتم للإسلام !

. . .

أقبل الناس على شارع الرشيد ، قبل أن تغيب الشمس بوجهها على بغداد ، فملؤوا جوانبه ، واستأجروا مداخل المحازن ، وشرفات المنازل

والفنادق ، حتى بلغت أجرة المقعد الواحد ربع دينار ، ولا ترى في شرفة
مقعداً ، ولا على رصيف مكاناً ، وتعلق الناس بالعمدة ، وأشرفوا من
الاسطحة ، وكانت الوجوه في بشر وانطلاق ، كما كانت الطبيعة منهلة
باسمة في هذا اليوم المشهود ، والشمس بازغة مساطعة ، والانس في
الارض وفي السماء .

وانتظر الناس ساعات ، لا يملّون ولا يضجرون .

. . .

وكننت في غرفتي في (الاعظمية) أهم بالنزول الى بغداد ، ثم يردعني
خوف الزحام ، وكراهية الاختلاط ، وخشية ان يبتلعني هذا اللج
البشري الهائل .

وكننت انظر في ركام الكراسيات التي تبلغ المئات ، والتي جمع فيها كل
تلميذ ما يستطيع من الأخطاء والحقائق ، لأموت بتصحيحها ، وتقدير
درجاتها ، فلا أمسها ، ولا أدنو منها ، وإنما أنصرف عنها أفكر في
بلدي وأهلي .

أهجم آمناً في بغداد ، وآنس مطبئاً ، وأهلي في دمشق يمشون
على النار ، لا يدرون ألى موت أم حياة ؟

أستمتع بالجمال ، وأتذوق الحب ، وأنفق الأمامي الهادئة في مسارب
الاعظمية ، أساير (الشط) وأنفياً ظلال النخيل ، والشام قد ثار من تحته
البركان ، وزلزلات منه الاركان ، وهب أهله هبة المستعيت ، يريدون
الحياة كاملة ، أو الموت صرفاً زعافاً ؟

فكرت في ذلك فامتلات نفسي كآبة وحسرة ، فقامت على غير شعور
مني وانطلقت الى بغداد ، وما أدراك اليوم ما بغداد ؟

. . .

بلغت (الباب المعظم) وعهدي بالمكان أت فيه شوارع وميداناً ،
فاذا هو بحر من الحلائق يوج بعضها في بعض ، وقد غرق في هذا البحر
الشارع واختفى الميدان ، فوقفت حائراً لا أتقدم ولا أتأخر .
وطال بي الوقوف ، وخشيت أن أبقى كذلك الى المساء ،
فتشددت وقلت :

ويحك يا نفسي ! لماذا الجبن ؟ وعلام التأخر ؟
ولماذا كنت تدفعيني الى ان أمارس ألوان الرياضة ، اذا كنت لاتستطيعين
النجاة في مثل هذا اليوم العصيب ؟

وظننت نفسي قد اشتدت ، فشرت عن ساعدي ، وأقبلت أدفع هذا ،
وأزيع ذاك ، وكلما دفعت عني واحداً حل مكانه عشرة ، فخارت قواي
وأيست من النجاة ، واعترفت لنفسي بأني لم ابلغ بعد مبلغ عنثرة (عنتر
القصة) الذي يقبض على الرجل فيرفعه بيده فيضرب به الآخر
فيقتل الاثنين ...

فوقفت فاشتد علي الضغط من كل جانب ، حتى أحسست كأن
أحشائي مستخرج ، وضاق نفسي ، ولكن كل ضيق الى فرج ، فلم يكن
إلا أن فرج الله عني فبعث رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فحملني الى
الفندق الذي أريد .

. . .

وكان في شرفة الفندق اخوان لنا ينظرون ، فتعدت معهم ، ولبثنا ننتظر المركب ، ونتحدث عن الفتوة في العراق ، ونستمع الى احاديث الاخوان وهي للأديب كنز لا ينقد .

وأشهد ان في العراق فتوة وشبابا ، وأنه شعب عرف طريق الحياة فسلوكه . ولقد رأيت من مظاهر الفتوة في بغداد ما جعلني أبكي من فرط التأثر .

رأيت في بغداد طفلاً يدرج على باب منزله ، لم يتعلم المشي ولا النطق ، وهو يحاول ان يخطو خطو الجند ، ويوعز بإعاز القائد : 'يس' . 'يم' اي : يسرى . يفي ...

رأيت في بغداد اطفال المدارس الابتدائية ، يسرون سير الجنود . يقودهم مدرس بلباس ضابط ، يدرهم على فنون القتال .

وذهبت مع الطلاب الى معسكر الانكليز في (سن الذبان) لمباراة رياضية ، فرأيتهم قد قلبوا المدينة الانكليزية الى حي من احياء العرب ؛ وأفاضوا عليها روحهم وشبابهم وفتوتهم ؛ فقلت : تبارك الله ! اذا كان جيش من لاعبي الكرة لا يتجاوز الخمسين شابا فعل هذا كله ؛ فكيف لو جاء الجيش العربي : جيش المستقبل ؟ وسألت الطلاب في الامتحانات هذا السؤال الازلي : ماذا يريد احدكم ان يكون ؟

فكان جواب الاكثرين انهم يريدون ان يكونوا جنوداً ؛ مشاة وركبانا ؛ وبجارة وطيارين ؛ يدافعون عن امهم ويذبون عنها كل طاغية او جبار ينبع من الارض او يهبط من السماء .

ورأيت اثر الروح العسكرية واضحاً في الطلاب ؛ فالطاعة من غير

استخذاء ؛ والحرية من غير تمرد ؛ والنظام من غير جمود ؛ تلك هي صفات طلاب العراق .

وإن في مدرستنا الغربية لثلاثة طالب ؛ والمدرسة سائرة سير الساعة المتقنة وليس في ادارتها الا مدير ومعاون ؛ مع ان مثل هذا العدد يحتاج في دمشق الى عشرة ضباط (معيدين) ثم لا تكون المدرسة كالساعة ؛ وانما تكون كالبركان الذي يهدد كل لحظة بالانفجار^(١) .

فيا ليت شباب دمشق يعرفون الروح العسكرية^(٢) ؛ كما عرفها اسقاؤهم شباب العراق .

. . .

لبئنا ننظر الى الضحوة الكبرى ؛ والناس لا يزدادون إلا تدفقاً ؛ فكانهم سيول تصب في هذا الخضم العظيم ؛ والشارع يوج بالناس موجاً ؛ ويزخر بالخلائق ؛ وكلهم يتطلع وينظر ؛ وكلهم يسأل متى يأتي الموكب ؟ وعمال الشركة الاميركية للسينما مائلون بآلاتهم في الشرفات والزوايا ؛ ليصوروا معالم الحياة في بغداد .

وإن البحر ليموج ويزخر ؛ وان امواجه لتصخب وتضطرب ؛ واذا بالمعجزة قد وقعت ، فانشق كما انشق البحر موسى ؛ وانفتح الطريق ؛ فنظر الناس ونظرنا ، فاذا الاعلام العربية تلوح بألوانها الاربعة التي تجمع شعار دول الاسلام ، كلها بأميتهما وهاشمها وعباسها ، وت رمز لفضائل العرب كلها :

بيض صحائفنا سود وقائعنا
خضر مرابعنا حمر مواضعنا

(١) كان ذلك حين كتب المقال .

(٢) قد عرفوها الآن .

واذا الموكب قد لاح من بعيد ، كما يلوح الهلال الهادي ، للقائد
الآيس . ويسطع كما يسطع نجم الامل في ظلمة القنوط ؛ واذا موسيقاه
القوية تدوي في الآذان ؛ فيكون لها اثر في النفوس احلى من نداء الحبيبة
في نفس المحب المشرق .

فحبس الناس الكلمات ، ووقفوا الانفاس ؛ يتطلعون ويترقبون ؛
والموسيقى تعلو والفتيان يتقدمون حتى وصلت طليعتهم ..

فما استطاع ذو شعور امسك دموع الفرح والفرقة والتأثر ان تسيل ؛
وارتجت الارض بالتصفيق والهتاف ؛ كما ارتجت من قبل بهذه الموسيقى
القوية المحبوبة ؛ وهذا النشيد الذي يسمع من خلاله صوت المستقبل البارع
وتلوح في اثنائه خيالات المعارك المظفرة .

وكانت الفتيان اطهاراً مثل الزهر اليانع ، لدنا كأغصان الروض ،
ولكنهم كانوا اقوياء كدروع الغاب ، اشداء كأسود العرين ، وكانوا
يسيرون صفوفاً متعاقبة على عرض الشارع ، مرفوعة رؤوسهم ، منتصبه
قاماتهم ، موزونة خطاهم ، على اكتافهم بنادقهم وعدة قتالهم .

. . .

لا والله ما أحسست بالعجز مرة عن وصف ما أرى مثل عجزى اليوم .
ومنذا الذي يقدر على وصف هذا الشيخ الهام ، ذي الشببة السائلة
على صدره وهو يلحظ حفيده الصغير ، يحمل البندقية ويمشي مختلاً مزهواً ،
يحلم بأجناد المستقبل ، ويذكر مدارس من أجناد الماضي ، فلا يطيق منع
الدموع ان تسيل من عينيه وتتحدروا على لحية البيضاء .

اني لاسمعه بحمد الله على ان لبلاده جيشاً من أبناءها ولم يكن يرى إلا
جيشاً واغلاً او دخيلاً .

ومنذا الذي يقدر على وصف هذه الام التي أمسكت بيد طفلها الصغيرين
وهما يتوثبان ايلحقا بالموكب ايربا أخاهما ، وطفقت تدعو الله دعاء هامساً
يتصعد من خلال الزفرات أن يحفظ لها ابنها ، والوطن بنيه : « يارب سلمهم »
ما شاء الله كان .. يارب سلم .. وتبكي !

ومنذا الذي يقدر أن يصف شارع الرشيد في هذا اليوم ؟
يا أيها الرشيد ! قم تر المجد الذي بنيته لا يزال قائماً .
قم تر الاحفاد قد نهضوا يسلكون طريق الاجداد .
قم تونا لم نضع الامانة ولم نهلك التراث .
قم تر مجد غازي يتصل بمجده كما اتصل الشارع بالشارع^(١) فعاداً
« مهيماً واحداً ؟

هؤلاء يا مولاي عدة المستقبل ، وهذا الجيش وهذه الآمال !

. . .

وفكرت فجأة في بلدي وأهلي ...
نحن هنا في فرحة والنار مشتعلة في فلسطين ، والنار توشك أن تلتهم
في الشام !

أي مصيبة لم يرها الشاميون ، وأي خطب لم ينزل بهم ؟

(١) اي شارع الرشيد وشارع غازي .

أما خرب الأقوياء بلادهم ضرباً بالمدافع وقصفا بالحديد وعرقاً باللهيب ؟
أما أخذوا ذهبهم وأبدلوه به ورقاً أقفرت به الخزائن وافتقر به ذوو
الغنى واليسار ؟

أما قطعوا البلاد حكومات ، وجعلوا من القرى دولات ، وقسموا
الناس بدداً ليجهلهم طرائق قديماً ؟
أما صبروا على هذا كله ؟

بلى ، لقد صبروا حتى لم يبق في قوس الصبر منزع ، واحتسبوا
ما لا يحتمل ؟

فلما نفذ الصبر ، وبان طوق المحتمل ، هبوا هبة الحليم إذا غضب ،
ويأما أشد غضب الحليم !

أنكون نحن في فرحة ، وقومنا في الشام في ألم ؟
وكدت أشعر بالحزن في قلبي ، ثم قلت : لا ، إن هذا هو الجيش
الذي يجب أن يفرح به قومي.

إن بطولة العراق وفتوة العراق صفعة من سفر المجد العربي ، كما أن
تضحية فلسطين ، وجهاد دمشق ، ونهضة مصر ، صفعات منه أخرى.
إن هذه كلها قوى متعددة ، تتوجه وجهة واحدة !

ثم إن دمشق لا تخاف شيئاً ولا تخشى !
وماذا تخاف ؟

الرصاص ؟ لقد فتح له أهلها صدورهم !
المدافع ؟ لقد أعدوا لها منازلهم !
اليتيم والشكل ؟ لقد تعودوا أبنائهم وأمهاتهم !

إنهم يريدون أن يحيوا حقاً أو يموتوا .
فهل يغلب شعب وطن نفسه على الموت ؟

. . .

وكان جيش الفتوة لا يزال يسير ، والارض ترتج بالموسيقى
والنشيد والهمات والتصفيق والدعاء والبكاء ، فعاد الامل الى نفسي قويا ،
هذه (بيه مونت) الوحدة العربية ، هذه (بروسيا) العرب ، هؤلاء عدة
المستقبل ، وهذا الجيش ، وهذه الآمال !

فيا أهل دمشق ، ويا أهل فلسطين ، ويا أيها العرب ، في قاص
من الارض ودان .

اطمئنا فإن لكم جيشاً !

ولما جاوز جيش الفتوة شارع الرشيد واتجه الى شارع غازي ماج
البحر واضطرب ، وتدفت وراءه الجموع ، وأمرعت أنا الى (الاعظمية)
لادرك الصلاة .

وكانت نفسي تضطرم بأجل العواطف ، وأبهى الصور ، ولكن جماها
لم يستم في نفسي .

إن في الموكب لنقصاً ظاهراً . إن فيه لعيباً أفسد رواءه ،
وأضاع بهجته . لقد تلطخ بالوحل بياضه ، وتدنس طهره ... إنما كان

في الامكان ان يقدم الموكب ساعة أو يؤخر ساعة ، حتى لا تضيع الصلاة
على هؤلاء الفتيان كلهم ؟

هذا هو النقص ، فياليت الوزارة لم تنسه ... يا ليتها ساقطت
هؤلاء الجنود كلهم الى المساجد ليقوموا فيها الصلاة ، فان أجدادنا
ما غلبوا عدوهم إلا بالصلاة ، والالتجاء الى الله ، وهوان الدنيا
وأهلها عليهم ، وابتغائهم لإحدى الحسينين : الظفر لإعلاء كلمة الله ،
أو الشهادة !

أفنعسب أننا نستعوض بالحديد والنار عن الايمان ؟

هيات والله هيات . ما النصر بالسلاح ولا بالذخائر ، ما للنصر
إلا من عند الله .

. . .

من ذكريات بغداد

كتبت سنة ١٩٤٦

ما الذي هاج في نفسي هذه العشية ذكر بغداد ، ونشر أمام عيني
ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها ؟
ما الذي رجعتني الى تلك الليالي حتى كأني - لفرط ما نشوقت اليها ،
وأوغلت في ادّكارها - أعيش فيها ؟
أي سحر فيك يا بغداد جذب قلبي اليك ، فلم أنسك إذ أنا في بلدي
الحبيب ، ولم ازل أحنّ اليك وأشتاقك ؟
بغداد ... يا بغداد ، عليك مني سلام الود والحب والوفاء ، على
المعظم على الصلّيح على الكرامة على الكرخ سلام الفؤاد المشوق
الولهان .

على ليالينا « بين الرصافة والجسر » . ما كان احلى تلك الليالي !
لقد كنت أشكو فيها ألم الغربة وأحن الى الوطن ، فصرت في وطني
أحن الى تلك الغربة وليالها ، وما ظلمني موطني وما انكرني ، وما كنت
لأذمة صادقا فكيف اذمه بما ليس فيه ، ولكنما هي الدعة ، ملأها
واجتوبتها : إني أشكو ألم الراحة ، فأعطيني به راحة الالم .
ذلك الالم العبقري الذي يفتح القلوب بآيات الشعر ، فاني منذ فقدته لم
اعد احسنّ بأنني ذو قلب !

على الوستمية . . ألا تزال الوستمية جنة من جنات الارض ، حافلة
بالعاشقين وبالحور العين ، ام طاف بها طائف من هذه الحرب فوجفت خملها
وهجرها قاصدوها ؟

على الصالحية .. بروحي صالحية دمشق وصالحية بغداد .
على (قهوة المطار) ، على ظباثها على جآذرها الف سلام .
على الجسر . . . يا جسر بغداد ، كم جمعت وفرقت ، ماذا رأيت
وصممت ، كم وصلت بين قلوب وقطعت ، انت الصلة بين ماض لنا كان اعز
من النجم واسمى ، وآت لنا سيكون اسمى من النجم واعز .
يا جسر بغداد ، يا مربع الحب والادب والمجد ، يا من كنت سررة
الارض ، وكنت لي سررة القلب ، عليك مني الف سلام .
يا ربوعاً تركت فيها قطعاً من حياتي ، وخلفت فيها بقايا من فؤادي ،
ماذا صنعت بفؤادي وحياتي يا ربوع ؟ !

. . .

ويا دارنا في (الاعظمية) من حلّ فيك بعدنا يا دار ؟
وهل صوّح لبعدنا زهرك ام ضحكت من بعدنا الازهار ؟
وهل حفظت آثارنا ام لقد طمست من بعدنا الآثار ؟
لقد كنت انت مستقرتي ومثواي ، وكان اليك مفرتي من دنياي ،
وكنت شاهدة افراحي كلها واتواحي ، وكنت مستودع أسراري
واخباري ، كتمتها عن الناس إلا عنك ، فهل كتمت سرّي
هذه الجدران ؟

هل ستوت بما رأيت من نقائصي التي أخفيت عنها الأصدقاء
والإخوان ؟

ما هذه الدنيا يا ناس ؟ هذه الدار التي كنت أفرّ إليها من رعب
الحياة ، وزحمة المجتمع ، فأغلق بابها عليّ ، وأخلو فيها إلى نفسي ،
فأحسّ أنها جزء مني ، وأنها لي وحدي ، صارت غريبة عني ، تنكرني
وتجهاني ، كأنني لست منها وأبست مني ، وصارت لغيري ، فإذا ما جئت
أطرق بابها ، رددت عنها ، أو قبلت فيها ضيفاً غريباً لا أرى إلا ما يراه
الضيف ، ولا ألبث إلا ما يلبث ... لا يأسكنها ، ما أنا بالضيف
الغريب ، إنها كانت داري ، إن لي فيها حقاً ، لي فيها ذكريات ، فيها
من حياتي ، من انقاضي ، من روحي !

ودار العلوم ؟ خبروني سألتكم بحق الأخاء عن ظلال أيامي فيها . سئى الله
ظلالها صوب القلوب !

خبروني ، ألا رجل كريم ، يحسن إلى هذا البعيد النائي ، فيمر بالدار
عند مسجد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، فيصعد إلى الغرفة التي تطلّ
من هنا على صحن المسجد المنور المبارك ، ومن هناك على صحن المدرسة
المزهر المشرق ، فيحيي عني هذه الغرفة ، فأبني سكنتها عاماً ، كان لي عام
دنيا ودين ، وفيها جددت طباعي وأفكاري وكونت نفسي .

ثم ليجل عني في هذه المدرسة ، في حدائقها ، في صحنها ، في ممراتها
ودعاليذها ، ثم ليصعد سطوحها الواسعة التي تمتد حتى تتصل بقبة المسجد ،

وتشرف على تلك الحديقة العتيقة ، وتلك المقبرة المهجورة ، وعلى طريق
السكاظمية ، فإن لي على هذا السطح ذكريات ...

ولماني إن أنس لا أنس يوم العيد ، وقد خلت المدرسة من ساكنيها ،
فلم يبق فيها غيري ، فأوغلت في هذه السطوح ، وصعدت حتى انتهيت الى
أصل القبة ، ونظرت فإذا أنا على بحر من النخيل ، تهتز قممه من تحتي
كأنها الامواج في الوجة الساكنة ، وتظهر في فُرَج النخيل طرق
الفلاسين ، وقد خرجوا مع اطفالهم واولادهم بشباب لها مثل لون الزهر ، ثم
تختفي خلال الاشجار ، كشاعر سادر أو محب متعزل ، ذهب يناجي
ذكريات الوصال .

ودجلة عند منعطف الصليخ تلوح بعظمتها وجلالها ، كأنها مماء من نور
ركبت في الارض ؛ وبغداد ، بلد الاساطير والاحلام ، يبدو طيفها على
حاشية الافق البعيد بقممها وماذنها ، كأنه (هو أيضاً) أسطورة ساحرة ،
يقصها الافق المشرق على الدنيا .

والى اليمين قباب الذهب من السكاظمية ، والقبة الخضراء التي توى تحتها
رأس ملكٍ شابٍ ، وشابٌ مليك ، حين توى غازي بن فيصل بن
الحسين بن علي !

لقد لبثت مكاني حتى شملت الظلمة الكون ، وضوأت المصابيح في
شبابيك المنازل فنظرت ... اليها ، أنا الغريب المنفرد ، الذي يمضي عيده
وحيداً على سطح المسجد ، لا رفيق له الا ذكريات سمادة ولت تؤلمه
وتحز في قلبه ذكراها ، وفكرت في أمري لو اصابني مرض فلبثت هنا شهراً ،
فمتذا يصل اليّ ؟ من يسألني ؟

وأبي فؤاد يخفق من أجلي بعد أن سكنت ذلك الفؤاد الذي كان خفاقاً
بحبي ، فؤاد أمي ، الى الابد ؟ نظرت اليها فغبطت أهلها إذ يغلقون
ابوابهم على الشمل الجميع ، والاهل الحضور ، والانس والسعادة .

ونزلت في طريق الحديقة العتيقة ، وإذا أنا اتعثر بحجر . فنظرت اليه ،
على شعاع يتهدر اليه من مصباح الشارع ، فإذا هو قبر متخلف من المقبرة
التي كانت هناك في غابر الازمان ، فامتلت نفسي بصورة المات ، ولم
اعد ألمس في هذه العصور الخضرة الا الربيع الماضي الذي مات ، ولا ارى
من الناس إلا قلوباً ميتة دنست في صدور اصحابها ، ولا اجد تراب الارض
إلا ناساً كانوا مثلنا وماتوا ... فأكلت هذه الاشجار اجسامهم ، وشربت
دماءهم ، فمنه كان زهرها الذي نشم عطره ، وغصنها الذي نأكل ثمره ...
ولم أر الدنيا الا موتاً في موت .

وأمت غرفتي وأنا غارق في بحر من الافكار السود ، فسمعت العشاء
يرن في صفاء الليل قوياً عذباً يومض ضياؤه في طيات الظلام ، إذ يحمل
اسم الله منيراً مشرقاً ، فقممت الى الصلاة ، فلما قضيت وخرج الناس ،
رأيت المؤذن ينادي على عادته بذلك الصوت الممدود : الفاتحة ! ثم يغلق
المسجد وينصرف ، وابقى وحدي ، ليس في المسجد ولا في المدرسة
غيري ، وبينهما باب من داخل ، فأعود الى غرفتي .

وما كاد يكتهل الليل ، حتى سمعت الصوت في المسجد كره أخرى ،
ولكنه خرج هذه المرة ضعيفاً وانياً ، في نغم حزين ، من لحن الصبا ،
فنظرت من شباك ، فإذا في ارض المسجد الذي اشتمل عليه الظلام ثلاثه
مصابيح بترولية خافتة النور ، تكشف عن فقر من الناس ، لا يبدو منهم

إلا أرجلهم وظلال لهم ممتدة فكانهم الجنّ ، أو كأنه فلم مخيف من أفلام
الف ليلة ... ثم سمعت تكبيرات الجنّازة ، فنزلت فرأيتهم يصلون على
ميت في نعش .

فسألت : من هذا ؟

قالوا : مؤذن المسجد !

فانصرفت لأدوّن في دفترتي ما عرض لي ذلك اليوم من صور
وغواطر ، ثم أضعت الدفتر ونسيت الغواطر والصور ، ونسيت أن
في الدنيا موتاً ...

كذلك أمضيت يوم العيد في دار العلوم ، وإني على هذا أشتاقها
وأشتقي أن ترجع لي أيامي التي مرت فيها . فيا رحمة الله على أيامي في دار
العلوم وعلى من بقي من أهلها السلام !

. . .

وإن أنس لا أنس (ليلة البلاط) ، ياليت ليلة البلاط تعود !

لقد رجعت أنا وأحد اخواني العشيّة من الأعظمية الى بغداد ، فتركنا
السيارات وجفونا الطريق الأعظم ، وسلكنا محجة على سيف دجلة فسرنا
فيها ، وكانت تنكشف لنا تارة فنسلكها ، وتنزل (طريقة ...) تارات ،
فتتبعه بين النخيل ، وكان النهر ابدأ عن أيماننا ، يبدو حيناً بصفحته البيضاء
المشرقة التي تشبه وعد الوصال ، يشرق للمحبّ في ليل المهرجان ، والامل
البسام يلوح لليائس في غمرة القنوط ، ثم يحجبه عنا النخيل ويستوره الظلام ،
كما يخلف المحبوب بدلاله الوعد ، ونمحو الحياة بواقعها مطور الاحلام ،

وتطمس حور الاماني . وكانت صديقي يحدثني حديث ماضيه فيشير في
نفسه عالمًا من الذكر الاليمة ، كلما نزلت به في اعماق قلبي ، ودفنته في هوة
النسيان ، وحسبته مات ؛ انبعث فجأة ، كأننا ولد الساعة ، عالم فيه
صور أبي وأمي وآمالي .

واستغرقنا في خواطرنا ، وغبنا عن حاضرتنا ، فما نهنا إلا جندي
بحرته المسددة الى بطوننا وبندقية الموجهة اليها ، وصاح بنا ؛ أن ارفعنا
أيديكما ؛ ففعلنا .

قال : ما أدخلكما حمى (بلاط الملك) ، وفيما انذركما فلا تفتان ؟
لقد همت أن ارميكما بالنار !

وكانت تلك هي الاوامر ، ما بعد الانذار إلا النار .

فقلنا : نحن اديبان ، أرأيت أديباً نفع معه انذار ، او افاض معه
تخويف ؛ ثم إننا برمنا بالحياة ، لا نرى فيها إلا ماضياً لا سبيل الى
إرجاعه ، وأملًا لا وصول اليه ، ولو أنت رميتنا لمننت علينا بمئة سملة ،
نرجو من بعدها ثواب الشهداء ، وإن الموت باعسكري درجات ، وألوان
بعضها أطيب من بعض ، وما نظنك سمعت بدعاء الأعرابي الذي
سأل الله مئة كمئة أبي خارجة ، لان هذه الجنة منك دلتنا على أنك
لا تقرأ كتب الادب . أفتعجب أن تعرف كيف مات ابو خارجة حتى
صار موته أمنية ؟

أكل حنيداً ، وشرب نبيذاً ، ونام في الشمس ، فمات شبعان
دفان ريان !

قال الجندي ، ولم يفهم منا شيئاً :

سَنُو لَنتُو يَا بَنَهُ ؟

قلنا : نحن معلمون !

فضحك وأرخى سنان بندقيته .

وقال : معلمون صحيح ، أما غير مختبلين ، (وغير هنا للتأكيد
ومختبلين ، أي مجانين) ! وتركتنا غضي لان المجنون لا يسأل ...

تلك هي ليلة البلاط ، واني لا اذكرها إلا أسفت على هذه
الميتة الحلوة التي فانتني ، وخشيت ألا أتمكن من مثلها ، وأظن
صديقي آسفاً مثلي ، إلا إذا استطاب حياته بعد الزواج وتعليم البنات
الادب ...

أما حياتي أنا فليس فيما لذة تستطاب ، وليس فيما ألم يستكوه .
أعني أنني لست انساناً يحيا ولكن (شيئاً) يعيش !
تلك هي ليلة البلاط^(١) .

. . .

(١) هذا البلاط الذي كانت تحميه حراب الحراس من قريب ومدافع الانكليز من بعيد ، تمنع الناس ان تدنو منه فتربى ما وراء جدرانه من فسوق وعصيان ، وتبصر من فيه على حقيقته : اسداً على الناس ، ونعامة بين يدي المستعمر ، من كان يظن ان هذا البلاط ستقوضه ايدي الشعب على جثث من كانوا فيه ، وكانوا هم المالكين ؟
ثم تلبت سرحة الديوقراطية في مقبرة الملكية ؟
ألا لا يفتر بالدنيا احد !

مالي كل هذه اليلة ذهني ، ولم يسعني شيطاني ؟

مالي أكتب عن بغداد ، فلا اذكر من ايامها الا هذا الحديث الثافه ،
وايام بغداد ، مواسم للمجد واعباد ، ولياليها فرحة الفؤاد ، وأسرة
للعب ومهاد ، وماضيها مآثر ومفاخر واجداد ؟

مالي لا اتحدث عن دجلة ، ويا طول شوقي اليها ، والى زوارق
المحبين وهي تمضي فيها حالة سكرى ، والاغاني تتراقص على
امواجها ضاحكة مرحة ، والسك المسقوف . خبروني ، ألا تزال
مرفوعة سقوفه ، مشتعلة ناره ، أم هوت من هول الحرب الدعائم
وانطفأت النار ؟

مالي لا أناجي اخواني وتلاميذي الذين عشت دهرأ من عمري بهم
ولهم ، وأسألم أذكرون هذا المعلم ...

أم قد مرت في حياتهم مرور شخص (السينما) ثم تنقضي الرواية ،
ويسدل الستار ، فكأننا لا شخص مرت بهم ، ولا (فيلم)
عرض عليهم ؟

أما أنا فاشهدوا يا تلاميذي ويا اخواني أني ما نسيتكم . أنسي
فجدة وعلياً^(١) ونزار بن البطل الشهيد ، الا اذا نسي الاب أولاده ؟
أنسي الاخ الأكبر (بهجة) العراق ، وقد طالما قبست الجزل من
فضله ، ورأيت الغد من نبله ؟ ما نسيت ، ولئن كبا بي

(١) علي الراوي رحمة الله عليه .

القلم الليلة ، فسأعود الى الحديث عن بغداد ، وما كل مرة
يكبر الجواد .

وهي اخواني وتلاميذي وبغداد وأهلها سلام الله ورحمته وبركاته .



يوم من أيام بغداد

« لعل ذكرى هذا اليوم تهز بغداد ، دار الاعزة
الصبد ، فيكون فيها لمصر وقضيتها يوم مثله ... »

كتبت سنة ١٩٤٧

طلعت جريدة (البلاد) على اهل بغداد ، صباح اليوم الاخير من آذار
عام ١٩٣٩ ، وفي صدرها مقالة (الكاتب شامي يحمل اسماً كاسمي) ،
ليست كالمقالات ، جملاً ترصف ، وكلمات تؤلف ، ولكنها قلب
يتفطر ، وديناميت يتفجر ، عنوانها : « يا غازي . يا غازي .
يا غازي . وفيها :

« يا غازي ، تدعوك الايام الثاقلات ، يا غازي يناديك اليتامى
المظلومون ، يا غازي يستنصرك الضعاف العزّل ، والعجائز الركّع ،
والاطفال الرضع . يا غازي يهتف باسمك الشباب الذي يواجه
بجسده المصفحات ، وبصدره الدبابات ، ويحارب الدولة الطاغية
الغاشية ، لا سلاح له إلا إيمانه ، وأمله بالله ، ثم بالعرب ، وبك يا مليون
العرب ، يا غازي !

يا غازي : دعوة غريق ينادي منقذه القوي !

يا غازي : هاتف مريض يدعو طبيبه الآسي !

يا غازي : إهابة مشرف على اليأس بالسيد المأمول !
يا غازي : صرخة الدم ، واللغة ، والدين ، والمجد ، والجوار .
يا غازي : المدد ! المدد !
يا غازي !

لقد نالت امرأة واحدة ، في سالف الدهر : « وامعتصماه » فاهتز لها هذا العرش ، عرشك . وماج لها هذا الشعب ، شعبك . وخرجت الجيوش ، جيوش بغداد ، فلم ترجع إلا وفي ركابها المجد والنصر .
فمن غيرك ، وغير العراق لهذه الأمة التي حملت البلاء ، ورأت الشدائد ، وشاهدت ألوان الموت ، وخانها الخليف ، ونقض عهده لها القوي ، وجرد دباباته الضخمة ، ومدافعه وعتاده ، ليحارب بها النساء والأطفال والشيوخ ؟

من غيرك وغير العراق لهذه الأمة التي تنادي اليوم : « واعراقاه » .
« واغازياه » !

فقم يا أيها (المعتم) ، لبها على (الخيول البلق) فات كتاب التاريخ أعدوا صحفهم ، وأمسكوا بأقلامهم ليكتبوا المفخرة مرة ثانية للعراق ، ولملك العراق !

إن الأمة التي أحبت فيصلاً ، وأحبها فيصل تناديك اليوم يوم الخطب يا بن فيصل !

إن الشعب الذي بايع فيصلاً ، هو على بيعته لك ، فهل تضع شعبك يا أبا فيصل ؟

إن القصر الذي كان يسكنه أبوك ملكاً ، والذي كنت تلهو في حدائقه
طفلاً ، هو اليوم مقر عدو العرب ، منه يصدر الأمر بقتيل رجال العرب
ونساء العرب ، يسكنه اليوم العدو الذي بغى على فيصل ، وسرق
منه عرشه . فأنقذ تراث فيصل ، من عدو فيصل ، وعد أنت الى قصر
فيصل ، يا ابن فيصل !

يا غازي

الشباب الذين سقطوا في شوارع دمشق شهداء البغي ، ماتوا وهم
يهتفون باسمك يا غازي .

العجائز تلقين أبناءهن المصرعين على أرض الوطن ، وهن يهتفن
باسمك يا غازي .

يا غازي ، كم من طفل وطفلة ، عدا عليهم الظالمون ، فتلفتموا
حولهم يفتشون عن المنقذ الذي حفظوا اسمه ، ورفعوا رؤوساً يسيل من
جراحها الدم ، وأشاروا الى الشرق بأصابعهم الصغيرة الخضبة بالنجيع الأحمر ،
ورددوا اسمك : يا غازي !

يا غازي ! بك علقوا الآمال ، ومنك ينتظرون العون ، أفتدع هذا
الشعب بين برائن الوحوش يعبثون بكرامته وأجاده وحياته ، وكرامته
كرامة العرب ، وأجاده أجادهم ، وحياته حياتهم

أتركهم يموتون ، وبغداد تستروح رائحة الربيع العطر ، وتستمع الى
جرس النشيد الحلو ، وتنام على فراش النعيم ؟

يا مليكي !

هذا يوم من أيام التاريخ له ما بعده ، فلا يقولنّ التاريخ :
« يا ليتهم نصرّوا الشام في وقت محنته ! يا ليتهم لم يدعوه دهن
الحديد والنار ، !

الشام في كرب شديد ... الشام في ضيق !
لقد ضجّ لما يعاني الشام قبر محمد ، ياسليل محمد !
لقد اهتزّ الحطيم وزهزم ، ومادت جبال مكة ، يا حفيد
شريف مكة !
يا ملك العرب : الشام يدعوك .

الشام يستجير بك .
الشام يهتف باسمك : « يا غازي . يا غازي . يا غازي ! » .



نشرت المقالة في أشهر جرائد بغداد ، فألهمت شبابها .
وشباب بغداد كوّنّت أعصابهم من نور ومن نار ، وخلقت أيديهم
من الندى ومن الحديد ، وملئت قلوبهم نخوة وسماحة ، وأتّعت
شجاعة وكرماً .

فإذا حاربوا أذلّوا عزيزاً وإذا سألوا أعزّوا ذليلاً
وإذا عزّ معشر زال يوماً منع السيف عزهم أن يزولا
وشباب بغداد ، جند العروبة حيثما كان للعروبة أرض ، وحماة الحمى ،
وأسد الغاب .

إن أطلقت رصاصة في الشام ، أو في مصر ، أحسوا أزيزها .
وإن أشعلت فيها نار وجدوا حرّها .
وإن سقط شهيد كان عندهم مأتمه .
وإن أصيب جريح كان في ضلوعهم ألمه .
وشباب بغداد إن غضبوا ، الإعصار الجارف ، والبحر الطافي ،
والصواعق المنقضة ، والموت - هل من الموت مهرب ؟
وشباب بغداد إن رضوا ، النسيم الرخي ، والربيع الطلق ، والسلسيل .
العذب ، والحياة - هل في الوجود أحلى من الحياة ؟
وعلم شباب بغداد ، أن ديار الشام في خطر ، وأن (حلفاءها) قد
نقضوا عهدهم لها ، وعادوا كما كانوا أعداءها ، فأسروا كرامها ، وسوّدوا
لثامها ، وجرعوها من (مدينتهم ...) الصاب والخنظل المسموم ، وأن
شعب الشام قد لبس لأمة الجهاد ، ونزل الى الشوارع يجالد البارود
بالحجارة ، ويرد الدبابات بالخنجر ، حتى سقطت الدور على أهلها فعدت
لهم مقابر ، وامتلأت بالأبرياء السجون ، واشتد الخطب وعظم البلاء ، وقل
الناصر ، وانقطع المدد ...
... واشتعلت الحماسة في صدور شباب بغداد ناراً ، ومشّت هذه النار
في قلوب الشعب ، فلم تمض ساعات حتى صار حديث الشام حديث الناس
في كل مكان ، في القهوات ، والطرق ، والمنازل والمدارس ، ولم يعد
الطلاب يصغون الى درس ، أو يستمعون الى مدرس ، أيشغلون
بالمفاضة بين الفرزدق وجري ، وبحساب بعد القمر ومساحة سيبريا ،

والشام غارقة في دماء بنيها ، عابقة برائحة البارود ، رازحة تحت أثقال المدافع ، تطوؤها نعال الفرنسيين والسنغال ؟

أيطلب الشكلاطة من لا يجد الرغيف ؟

أيقرأ الأشعار من تأكل بيته من حوله النار ؟

إنهم يريدون أن يطيروا الى الشام ، ليطبّقوا في ساحاتها ما تعلموه في دروس الفتوة من فنون القتال .

وفوجيء الناس في المساء ، بإذاعة هذه المقالة من محطة الملك الخاصة ، في قصر الزهور ، فلما انتهى المذيع من تلاوتها ، كانت مفاجأة للناس أشد وأجعد ، حين سمعوا صوت الملك غازي الذي يعرفونه ، يقول :

« لبيك . لبيك يا سورية ! » .

فكانت هذه الكلمة سحراً ماضياً جعل كل منزل في بغداد ثكنة ، وكل قهوة معسكراً ، وكل رجل جندياً شاكي السلاح ، ينتظر الامر بالهجوم على الجن والإنس والعقاريت لاياب شبتاً ، ولا يخشى أحداً ، ما دامت الحرب حرباً مقدسة لنصرة الشام ، والقائد الملك الشاب الحبيب .

وكانت حال لا توصف ، ولا تصوّر ، ولا تمحور الايام أثرها .

. . .

ودعا ناظر الثانوية المركزية في صبيحة الغد نفراً من المدرسين العراقيين والشاميين منهم كاتب المقال ، وأفهمهم سرّاً ، (ولا خير

اليوم في إذاعة هذا السر) أن الحكومة ترغب في مظاهرة احتجاجية على فرنسا ، وأنه ترك لنا أمر تنظيمها ، فكان ذلك أحب إلينا من خزائن المال نعطاءها ، وأسمى المراتب منحها ، وخرجنا فأخذنا في عملنا .

وكان في بغداد وضواحيها عشر ثانويات ، فاقسمنا ثانوياتها العشر ، ينفرد كل منا بأعداد طلاب مدرسته للمظاهرة ، وتفقنا في هذا الإعداد واستبقنا فيه ، وكنت امراً أكتب ولكني لا أحسن بيتاً واحداً من الشعر ، فبحثت عمن ينظم لمدرستنا نشيداً لهذا اليوم فلم أجده ، فنظمت أنا أنشودة مهلهلة النسيج ، ضعيفة التأليف ، لكنها خارجة من القلب وتقع في القلوب ، ثم وضعت لها (أنا ...) لحناً لفقته من ألحان الأناشيد التي كنت حفظتها قديماً ونسيتها الناس ، وعمدت إلى لوحات صنعناها من القماش ... فكتبت عليها كلمات تعبر عن الحقيقة التي امتلأت بها نفوس البغداديين مثل :

« الله جعلنا أمة واحدة فلن نفرقنا يد مخلوق ،

« نحن جند الوحدة ، إننا سنكتبها بالدم »

« من تعدى على دمشق فقد اعتدى على بغداد »

« لبيك لبيك يا سورية ، إننا آتون ،

« يا سورية ، لن تضامي وشباب العراق في الوجود ،

وسهرت مع الطلاب في كتابتها وتلوينها ، وأنا الذي لم يمكّ من قبل (ريشة) قط .

. . .

ولم أتم تلك الليلة بل كنت أنتقل من مكان الى مكان ، حتى إذا أصبحنا بكرت الى ساحة الاجتماع ، وهي الساحة الفيعاء بين دار الكتب والمتوسطة الغربية ودار المعلمين العليا ، فوجدتها تعج بالطلاب من كل مدرسة ، وكلهم بلباس الفتوة لا يمتاز طالب منهم من طالب ، فكيف أجمع طلاب مدرستي وأصفهم ؟

وظفقت أصرخ ولا سامع ولا يجيب .

ومن يسمع النداء في هذا المحشر الذي جمع فيه عشرة آلاف طالب متحمس كلهم يصيح ويتكلم ؟

ثم ألهمني الله فكرة فدعوت عريفاً من عرفاء الطلبة ، يميزته من شرائط الفضة على ذراعه ، فانتصب أمامي ، وحيّاً ووقف وقفة عسكرية ينتظر مني الأمر . فقلت له : صف هؤلاء الطلاب .

فأعاد التحية وقال : حاضر .

وانصرف ، وأنا أعجب منه كيف يقول : « حاضر » ، وقد عجزت من قبله عن ذلك ويعجز عشرة من أمثالي !

وإذا به يدعو طالباً معه بوق ، فينفخ به ، فتقع المعجزة ، ويعم الصمت ، كأن المتوكل قد طلع بضوء وجهه ...

... .. فانجلت تلك الدجى وانجاب ذاك العثير

ثم ينفخ فيه أخرى ، فإذا هذه الحلائق كلها ، تغدو صفّاً طويلاً صامتا مرتباً .

وقدمني إخواننا فقلت فهم خطبة . ومشينا ، حتى اذا بلغنا أوائل ميدان باب المعظم ، قابلتنا مواكب الشعب الهائلة آتية من حيّ الفضل وتلك الأرجاء ، فتداني الجبلان ، والتقى البحران ، فعادا بجرأ واحداً ، تلتطم أمواجه ، وتعلو أثباجه ، بجرأ من الناس ملأ باب المعظم وافواه الشوارع المقضية اليه ، والارض البراح من هنا ومن هناك .

وقام الخطباء في كل مكان فلم يبق في اللغة كلمة تمجيد إلا قيلت للشام ، ولا لفظة تحقير إلا سبقت لفرنسا ، ولا جملة تعبر عن القوة والإيمان والاستعداد إلا أقيمت على الناس ، ولا شيء يزعج القلب ويحرك العزائم إلا كان . ثم مشى هذا البحر .

والى أين تمشي البحار ؟ والشوارع قد سدت بالناس ، والناس على الأرصفة وفي الشرفات وعلى الأسطحة . وفي كل مكان هتاف ونداء ، فالطلاب ينشدون ، والعامّة يحدون ، والنساء يزغردن ، والتكبير والتهليل ، والمواكب تمتد ، والخلائق تتوافد ، حتى حلت بغداد كلها في شارع الرشيد من باب المعظم الى الباب الشرقي ، وكان يوم ما رأيت له مثيلاً قط .

. . .

إننا لم نخض في ذلك اليوم ملحمة ، ولا شهدنا معجزة ، ولا أرقنا لعدوّ دماء ، ولم نجاوز فيه الكلام ، ولكنه كلام جعل كل فتى من هؤلاء الفتيان بطلاً ، وترك في نفسه ذخيرة تمدّه بالقوة دهرأ ، وصبّ في نفسه من العزة ما جعل نفسه أسمى من النجم ، واكبر من الدنيا.

كلام ولكنه كان أساساً من الصخر الراسي في صرح الوحدة العربية
غداً والاسلامية بعد غد .

كلام ولكنه أُرهب العدو وخلع قلبه ، وردّه عن قصده ، ... فم
من عدوانه .

كلام ولكن بمثله تحيا الامم ، وتبنى النضات ، وتكتب تواريخ المجد .
كلام ، وإن من الكلام لفعّالاً من أعظم الفعّال ، وقوة من أمضى
القوى ، ومجداً من اسمى الاجداد .

★ ★ ★

إن الشام يذكر لك يا بغداد في عرس الاستقلال ، ما اسديت اليه في
بؤس الاحتلال ، فهلا اتخذت عند مصر يداً مثلها تذكرها لك يدُ الدهر ؟
إن مصر ، يا بغداد ، أختنا الكبرى في العروبة ، وقضية مصر
قضيّتنا ، ووادي مصر وادينا ، وعدو مصر عدونا ، وإنا إن نخذل
مصر نخذل بلادنا ، وإلا نكنّ معها نَحْنُ أمتنا

يا بغداد ، يا ذات المجد ، يا مشوى البطولة ، يا عربين الآساد ، إن
مصر قد عدا عليها العادون ، وكشّر لها عن انياب الذئب ، من كان يجيئها
أيام الحرب في فروة الحمل ، سائلاً يطلب منها العون والمال .

إنه يريد الآن ان يفرق بين اسودها واسمرها ، واعلاها وادناها ،
ويسرق منها نصف واديا ، أفتنامين يا بغداد في سُرُرِ الامان ، ومصر
في الشوارع تصارع الذئاب ؟

يا بغداد ! اليوم يومك ، يا بغداد !!

نحية وشكر

« زار وفد النادي العربي بغداد سنة ١٩٣٨
فكان الاحتفاء به عظيماً ، وكان اكرامه
سابقاً ، فنشرت هذه الكلمة في جريدة البلاد ،
نحية لأهل بغداد وشكراً »

يا أهل العراق :

إرحموا قلوب اخوانكم من أهل الشام ، فانها ملوءة بحب العراق ،
وشعبه الحبيب ، وحكومته المجيدة ، وأرضه وسكانه ، وماضيه وحاضره ،
وكل ما يحتويه العراق ، فأرحموا .. لا تحملوها فوق ما لا تطيق ،
لا تكلفوها من حبلكم شططا ، لا تحملوا عليها كرمكم كله ، فانها قلوب ،
لا تطيق القلوب حمل البحر الحضم ...

انما قلوب ، هل تملك القلوب إلا الحب ؟ والالسة ؟ هل تطيق
الالسة إلا الشكر ؟ هذا جهد المقل ، فلكم من اخوتكم ، من أشقائكم
الساكين داركم الاخرى ، الصغيرة ، القائمة على سفح قاسيوت ، وضاف

بردى ، الحب كله والشكر كله ، خالصاً لكم .
ولكنكم ، يا أهل العراق ، ما رحمتم هذه القلوب ، ما اقتصدتم
في الكرم .

* * *

ما رحمتوها ...
هؤلاء فتيان دمشق ، قد عادوا وعلى ألسنتهم سورة جديدة من
سور الحمد ، وقصيدة من قصائد الثناء .
فمتى تناولوها ؟ هل تركتم لنا (نحن الشاميين) وقتاً ، ألم غلأ الوقت
بالثناء عليكم ؟
قد عادوا وفي نفوسهم ذكرى نيرة ، سيشتيع نورها في دمشق فيجلو
لأهلها كرمكم وعظمتكم .

* * *

قد عادوا وفي نفوسهم ذكرى عطرة ، سيفيض أريجها على الغوطة ،
فتتذوق من أزهارها عطور بغداد .
ومتى نخلت أزهار الغوطة من عطور بغداد ؟

• • •

يا أهل العراق :
إن كل حفلة أقمتموها لهذا النادي إنما هي تكريمة لدمشق ، وسطر

جديد من كتاب الاخوة التي الفت سفرها العصور ، ونظمت ابوابها يد
الحق الابليج ، والواقع القاهر ، وكانت مادتها العقيدة واللغة والنسب
والجرار ، أما العنوان فقد أملاه الله من فوق سبع سموات : (إنا
المؤمنون إخوة) .

أدبناقش الناس بعد ذلك في (الوحدة) أنكون أو لا تكون ؟



يا دكتور طه حسين !

انك لن تحل عقدة عقدها الله ، انك لن تستخرج من نفوس المصريين
إيمانهم ، ولن تنزع من ألسنتهم عربيتهم ، بحديث صحفي قدي به ، وأنت
في (مارييت باشا) مسافراً الى فرنسا^(١)...

ويا .. يا (اولئك) الناس ؟

إن خشبتين منصوبتين في عرض البادية ، لن تمنعا البحريين إذ يلتقيان ،
لن تمحوا وحدة العقيدة واللغة والنسب والجرار والذكريات والآمال . فلا
تختصموا ولا تنازعوا ..

قد وضع الصبح لذي عينين !



(١) وهو حديث عندي نصه منشورا ، فيه انكار للعروبة ، وحرب للوحدة ، وقلم طه حسين
كالخرباء كل يوم له لون ، وما لونه الا لون ما حوله ، ولقد كتب في الكفر وليس
كافراً ، وكتب الآن في الاسلام وليس متديناً ، وطرق كل موضوع وما يعتقد
موضوعاً مما طرق .

ومنذ الذي يقول ان أعضاء النادي العربي كانوا غرباء في بغداد ؟
ومنذ الذي يقول أنت وفد الفتوة العراقية كان غريباً هذا
الصيف في الشام ؟

اعقلوا يا ناس !

فان الالماني يدخل فرنسا ، وان الفرنسي يلج المانيا فلا يمشي
فيها ساعة حتى يرى كل شيء قد تبدل ، فلا اللغة باللغة ، ولا العادات
بالعادات ، ولا الوجوه بالوجوه ، أما العربي . .

أما أنا في بغداد

ماذا تغير علي ؟ أليس ماضي بغداد ماضي ؟ وحاضرها حاضري ؟
أليس الرشيد خليفتي ؟ وغازي ملски ؟ والوحدة والعزة أهلي ؟

وبواتيه ؟ ألا تبكيه كما تبكي البغدادي ؟ وفلسطين ؟ ألا تشغلني كما
تشغله ؟ ألا أفخر بأجداد بني العباس كما يفخر بأجدادهم ؟

أليست اللغة لغتي ؟ والمسجد مسجدتي ؟ والعادات عاداتي ؟ والوجوه
وجوه أهلي ؟

فماذا بعد هذا ، يا ناس ؟

. . .

فتحية طيبة ، وشكراً شكرياً ، يا أهل العراق ، يا حكومته
الجليلة ، ويا شعبه الحبي ، على ما أكرمتكم به وفدنا ، على ما أكرمتم
به اخوانكم من سكان الجانب الآخر من المنزل ، ولكن
لا . لا شكر .

جل الأمر عن الشكر .
لا شكر . إن الأخ لا يشكر أخاه !

. . .

يا أهل العراق ، لا أقول هذا ترافاً ولا أريد عليه مكافأة ، ولا أقوله
باسم النادي فلست منه ولا انتسب إليه ، وما كنت شريكه في الذي ناله
من إكرام ، ولا دعاني أحد إلى حفلة واحدة من هاتيك الحفلات كلها ،
ولكن أقوله لأنه الحق ولاني أحب العراق ، مشرق أملنا اليوم ، ومصدر
النور لنا ، ومعقد رجائنا ، فمن شاء فليصدق ، ومن شاء فليطر مع
الظنون السود ثم ليبط حيث أراد .

اني أحببت العراق قبل أن اعمل فيه موظفاً ، وسأحبه بعد أن أدع
للعمل^(١) ، كما يحبه اليوم كل عربي ، وكل مسلم ، واني أرفض أن آخذ على
حبي أجراً من أحد ، فصدقوا إذا شئتم !

يا أهل العراق تحية طيبة وشكراً شكرياً وحقق الله الرجاء .

. . .

(١) وهذا بعد كتابة هذا الفصل بشتين وعشرين (٢٢) سنة لا ازال على هذا الحب ،
فلا يقل أحد في العراق اننا قد قمنا في الوفاء !

نوري السعيد

أذيعت في آخر سنة ١٩٥٦

أبدأ هذا الحديث بـ (الحمد لله) ، لا الحمد التقليدي ، الذي تفتتح به الخطب ، والذي لا يعدو كلمة تقال باللسان ، لا ينطق بها الجنان ، بل أنا احمد الله حقيقة ، احمده من اعماق القلب ، على أن أرانا الفجر الصادق ليوم المجد الجديد ، المجد للعرب والمسلمين .

ولقد كنا اذا فخرنا من قبل ، اسكتتنا السيوف التي صدئت في الاغمار ، والعزائم التي هجعت في النفوس ، والقرى التي استرخت في السواعد .

وكنا اذا ذكرنا الماضي العزيز ، كذبتنا شواهد الواقع الذليل ، فضجت السيوف في اغمارها حتى سلت ، وثارت العزائم في نفوسنا حتى وثبت ، وعادت الى سواعدنا قراها ، ورأينا نحن من أنفسنا ، ورأت الدنيا منا ، اننا اهل لماضيها ، وان إرث البطولة لم يفقد من قلوبنا ، وأننا أبناء أولئك الجدود .

لم يكن ينقصنا (كما قلت لكم مرة) إلا السلاح ، السلاح الجديد الذي

قصر العثمانيون ، فلم يحملوه يوم ظهر ، ولم يتعلموا العلوم الجديدة التي
صنعت هذا السلاح ، ولبثوا على ما عندهم ، فسبقتنا الناس بعد ان كنا
نحن السابقين .

كان ينقصنا السلاح فقط ، فلما صار في ايدينا منه ، استطاع رجل
من مصر ، أن يقول (لا) ، حين قالت الدول الكبرى (نعم) ،
وأن يقف بمصر ، بل ببلد صغير من مصر ، في وجه دولتين كانتا تعدان
يوماً أقوى دول الارض ، وكنا نظن انهما لن تغلبا ، وانه لا مبدل
لنا عليهما .

ولئن تسليح العرب والمسلمون ، التسليح الكامل ، فليقفن في
وجه أهل الأرض جميعاً ، وليحاربن الجن والانس والشياطين ،
وايَّسبن بشفرات سيوف المجاهدين وعلى أساس جماجم الشهداء ، مجدداً
جديداً ، يزري بالمجد التليد .

. . .

وشيء آخر يا أيها السامعون ، هو اننا لم نغلب في اشد ايام ضعفنا ،
لم يغلبنا المستعمرون بقوتهم ، ولم ينتصروا علينا بسلاحهم ، ولكن
كنا نحن نهدم بايدينا مجدنا ، كانوا يضربون بعضنا ببعض ، وكانوا
يسلطون بعضنا على بعض !

من قضى على حكومة الامير عبد القادر في الجزائر ؟

وهل كان يغلب أو يستسلم لولا ان وجد أعداؤنا أناساً منا
يعينونهم علينا ؟

هل كان يغلب لولا الحائنون ؟

ومن ذهب بثورة الامير عبد الكريم من بعد ؟

والتورة السورية ، من قوض دعائها ؟ الفرنسيون الذين جاؤوا من
باريز ، أم فرق المتطوعين من الذين يسكنون سورية ، والذين أطعمتهم
سورية وسقمتهم وآدتهم وأكرمهم ؟

ومن ضمن لانكلترا ، وفرنسا كل نصر نالته في مئة السنة
الماضية ؟

هل ضمن لانكلترا النصر إلا الهنود ؟

وهل ضمن لفرنسا النصر إلا المغاربة ؟

ومن أخذ الشام من آل عثمان ، ورفع يدهم عنها حتى وضع
الانكليز والفرنسيون أيديهم علينا إلا نحن ؟ نحن الذين خدعنا بوعودهم
واطمننا الى عهدهم ؟

كانوا يسلطون بعضنا على بعض ، وكانوا يضربون بعضنا بأيدي
بعض ، وهام اولاء يلجؤون اليوم الى هذه الحطة القديمة .

يريدون أن يضربوا العرب بالعرب ، والمسلمين بالمسلمين ، فجاءوا
بعبد الانكليز^(١) ، وابليس السياسة العربية ، بنوري السعيد ، وبهذا
الحلف الملعون ، حلف الشياطين .

وحسبوا أنهم اذا كسبوا نوري السعيد فقد كسبوا العراق ، لان العراق

(١) اردت به عبد الآله ، ولكن لم يمكن يومئذ التعريح باسمه .

كما كانوا يظنون ، ويظن كثير من الناس خاتم في اصبع نوري السعيد ،
فان شاء ادخله في أصبعه ، وإن شاء نزع من أصبعه .

وان الوزارة قيد إشارته إن شاء تسليتها ، وإلا شاء
تخلي عنها .

وأنه الرجل القدير الجريء المحنك ، الذي ليس له نظير .

وأنا اعرف العراق كما اعرف الشام ، وأنا رجل عاش في العراق
أربع سنين ، وأكل من خبز العراق ، ولي في العراق اخوة واصدقاء ،
ولي في العراق تلاميذ ، كانوا تلاميذي من عشرين سنة ، وهم
اليوم من أركان العراق ، فاذا تسكمت عن العراق ، تسكمت
كلام الحبير .

ان الوزارة قيد إشارة نوري السعيد حقيقة ، ونوري السعيد قدير
جريء محنك لاشك في هذا ، ولكن قوة نوري السعيد ليست بمنزلة عند
الشعب ، بل لمكانته من الانكليز .

وما أذكر ان حضرت مجلساً خلال اربع سنين عشتما في العراق ، وخلال
ذوراتي المتعاقبة للعراق ، وذكر فيه نوري السعيد ، إلا أجمع الناس
على وصفه بأنه عبد الانكليز ، ولعنوه وأعلنوا البراءة منه .

وتردده على الحكم تسع مرات الى الآن ، ليس لأنه صديق الشعب ،
ولا لأنه المسيطر على العراقيين ، بل لصلته بالانكليز .

ومواهبه كلها ، وقدرته ، وجبراته ، وحسنه ، كل ذلك مسخر
لخدمة الانكليز ، وما قيمة المقدرة اذا لم تكن مسخرة للحق ؟

إن إبليس أقدر بلائك ، وأجرا ، وأشد حنكة ، ولكنه إبليس .
وجند إبليس كلهم من اللصوص والقتلة والمجرمين ذوو قدرة .

هل يسرق اللص ويرسم الخطط للسرقة ، ويقتل القاتل ويعد العدة
للقتل إلا وهو قدير ؟ فلا قيمة للقدرة وحدها إن لم تكن معها الفضيحة .

ونوري السعيد له مزية الثبات على مبدئه ، إنكيزي ، إنكيزي عن
عقيدة وإيمان ، كما يقولون ، ولكن إبليس كذلك له مزية الثبات
على المبدأ عن عقيدة وإيمان ، إبليس إبليس ، ما يبدل ولا غير ، ولكن
هذا الثبات لا يسوغ أن ترضى عنه ، بل نلعنه مرتين ، مرة لأنه كان
شريراً ، ومرة لأنه ثبت على الشر ، ولم يتحول عنه ، ولم
يتب منه .

أما حكم الله في نوري السعيد وأمثاله ، فهو في نص القرآن :
« لا تجد قوماً يؤمنون بالله وباليوم الآخر يرادون من حادثة الله
ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم »
صدق الله العظيم .

وقال تعالى : « ومن يتولهم منهم فلإنه منهم »
فتوري السعيد تولى الإنكيز ، فهو من الإنكيز ، هو المستر
نوري السعيد .

وباليتة كان يرالهم موالاة الند قند ، بل هو نعمة معهم ،
وأسد على أمته .

أسد ؟ استغفر الله ، إن الأسد لا يهاجم امرأة ولا صبياً ، إلا إذا

اضطر الى ذلك ليعيش ، وغلبه الجوع ، ونوري ، عفواً المستر نوري ،
لا يستطيع ان يهاجم إلا النساء والاطفال واولاد المدارس .
يضرب أبناء العراق ، برصاص العراق ، ويسخر اموال العراق ،
لحرب شعب العراق .
لماذا ؟ ليقى في الحكم ، ليقى فيحقق للانكليز ما يريدون .

• • •

واني ما كنت أحب والله ان أدخل نفسي هذه المداخل ، وكنت
أنا لم حينما أجد المحطات العربية تتبادل السباب بعد ان كانت تسب
كلها اليهود .

ومن كان السبب ؟ هذا الرجل الذي باع نفسه للانكليز ، كما باع
(فاوست) نفسه للشيطان .

وللعامة أمثال عجيبة ، والمثل العامي يقول : لا تلوّموا الذي يسب
الناس ، بل لوموا الذي يدعوا الناس الى سبه !

ما كنت أحب ان اسب نوري السعيد ، ولكن لما تحققت من انه يريد
أن يثيرها في سورية شعواء مجنونة ، ويسلط عليها أعداء العروبة والاسلام ،
ولما رأيت يضرب شعب العراق بالنار ، ولما قرأت أسماء المعتقلين وهم
اخواني وأحبائي وهم خيرة رجال العراق ، لم اعد استطيع الامتناع عن
سب نوري السعيد .

اسبه لا يرى العراق من ذنبه ، ان العراق بريء من جرائم هذا

الرجل ، ومن المؤامرات التي اعدتها .
ان شعب العراق ، أمضى شعوب العرب ، وأشدّها آباء ، وأوفاهما
المروبة ، ولكن من طبعه ان يحتمل طويلاً ثم يشور ، فإذا ثار ، فلن يهدئه
الحديد ولا البارود ولا النار .
ولقد شهدت ثورته على بكر صديقي ، وكيف اودى به ، وقد
كان بكر صديقي أرجل من نوري وأقوى .
وشهدت ثورته على نوري يوم دبر قتل الملك غازي . لقد كنت هناك
ولي على هذه الجريمة التي دبّرها عدو الله الدلائل .
وشهدت الوثبة على معاهدة بورت سميث .
وما هوذا العراق يشور ، وإذا ثار العراق فقد انتهى نوري .
انتهى ، انتهى هذه المرة ، وانتهى الى الابد ، فلن تقوم له
قائمة بعد اليوم .
انها قضية أيام فقط وتسمعون خبر انهيار هذا الصنم الذي نصبه
الانكليز ، لقد تنبه العرب ولن يعودوا الى عبادة الأصنام ولن يضرب
بعضهم بعضاً بعد اليوم^(١) .



(١) لقد انهار الصنم ، ونسأل الله ان يعيد الصفاء بيننا كما كان .

نداء لم يجد مجيئاً

أذيع قبل ثورة العراق بأسابيع

يا جلالة الملك فيصل

في آذار سنة ١٩٣٩ كانت سورية تخوض معركة من معاركها المتصلة في سبيل الحرية ، تحارب العدو الغاصب ، وتتلقى بصدور ابنائها رصاصه وثاره ، وتقف بأجساد رجالها ونسائها وتلاميذ مدارسها امام دباباته ومصفحاته .

كانت تناضل الفرنسيين كما يقاتل العراق اليوم الانكليز ، ولكن من كانت تقائلهم سورية كانوا فرنسيين لحماً ودماً ولساناً ، وكانت أسماؤهم جورج وميشيل ، ومن يقائله العراق اليوم ، عرب الدم واللسان ، ولكنهم انكليز القلب والحب ، عرب المظهر وانكليز الجوهر .

قد اتخذوا لهم أسماء مستعارة يتخفون وراءها : (نوري) وفلان وفلان ، وحقيقة أسماؤهم ايدن وتشرشل وكلوب ا و كنت يا مولاي أهمل في بغداد ، كنت مدرساً فيها بعيداً عن أهلي وبلدي ، فسكات بلذع فؤادي أسي ، أن أبيت آمناً ، أتقياً ظلال النخيل على سيف دجلة ،

واضحى بشمس الاعظمية ، وأهلي هناك يتجرعون غصص الموت، ويعالجون
مكرات الخوف .

وما قامت قبل ذلك مظاهرة ، ولا كانت معمعة نضال من سنة ١٩٢٨
الا كنت فيها ، لاني كنت تلك السنين كلها ، رئيس اللجنة العليا لطلاب
دمشق ، فهاثم حركة يتحركها الطلاب الا كنت أنا محركها ، أو كنت
مشاركاً فيها ، أو على علم بها .

وحاولت أن أستاذن وزارة المعارف العراقية وأعود الى دمشق ، فما
تركني الفرنسيون أسافر ، فكتبت هذه المقالة التي أتلو على جلالتكم
فقرات منها ، ونشرتها في صدر (جريدة البلاد)^(١) ، فما كان المساء ،
وكان لأبيك الملك غازي في (قصر الزهور) محطة اذاعة خاصة ، غير
محطة الاذاعة العراقية ، فما كان المساء حتى سمع الناس المقالة تذاع
من محطة القصر ، وسمعوا بعدها صوت أبيك يا مولاي . يقول :
لبيك ، لبيك .

وراح يعمل .

وتسربت الى الناس اخبار الخلاف بينه وبين الانكليز ، هذا الخلاف
الذي تعددت مظاهره ، وتكرر حتى يش الانكليز من غازي، ووضعوا
خطة الجريمة ، جريمة قتله بجاذب السيارة المصطنع ، على يد نوري

(١) عدد الخميس ٣٠ اذار سنة ١٩٣٩ وقد مرت الاشارة اليها في هذا الكتاب .

السعيد ، ويد آخر^(١) يعرفه أهل العراق كغيرهم وصغيرهم من شهد تلك الأيام .

وكان شعب العراق ، يغلي حماسة للجهاد ، وحمية لنصرة سورية ، ولو فتح له الطريق لمشي الى الشام مشياً ، يشارك أهل الشام محنتهم ، ويقاسمهم مصيرهم ، واقداً قمت في العراق اربع سنين ، فما رأيتموها الممت ملة ببلد عربي قريب أو بعيد ، الا أحس العراق ألماً ، ولا كانت مشكلة عربية الا حمل العراق همها .

واذا رأيتم العراق اليوم في عزلة فلان نوري ولأن عبد ايدن^(١) ، هما اكرهاه عليها ، وسيخرج باذن الله منها .

وارعز الملك غازي للحكومة ان تدع الشعب يعلن ما يبطنه من شعور النصر لسورية ، بل زاد على ذلك فأمر الحكومة ، فأعدت مظاهرة يقوم بها الطلاب ، فدعت طائفة من المدرسين ذوي الالسنه والعزائم ، واكثرهم من السوريين ، وكنت معهم .

ورسمنا طريق المظاهرة ، واعدناها ، وسهر الطلاب يهينون الاعلام ويكتبون عليها اصرح ما في اللغة من كلمات التمجيد لجهاد المجاهدين من أهل الشام ، والغضب على عدوان المعتدين من الفرنسيين .

وأعدت الاناشيد الحماسية ، وأنا الذي لم يكن شاعراً قط ، نظم في ذلك اليوم اكثر من نشيد ، منها نشيد (يا ملك العرب غازي) الذي اشتهر وردده الالسنه زمناً .

(١) المقصود به عبد الاله .

هذا النشيد الذي نظمته وأنا غير شاعر ، وزدت فلهجته وأنا غير موسيقي ، ولكن الحماسة التي أثارها ابوك يا جلالة الملك ، ان النار التي اوقدها ابوك في ضلوع العرب جعلت العبيد فصيحاً ، والجبان بطلاً مقداماً ، وقامت مظاهرة ، اشهد وقد عشت في بلد المظاهرات ، وشهدت الوثبات المتصلة من سنة ١٩١٨ الى ان جلا الفرنسيون عن الشام ، ووثبة الفرح والانتفاضة خلال أيام الحكم العربي ، ووثبة الجهاد والنضال أيام الانتداب ، فما رأيت مظاهرة اكبر ، ولا يوماً اعظم من ذلك اليوم .

لا والله ، ولقد مرت عليه هذه السنون كلها ، ولا ازال كأني اعيش فيه الآن .

لم تكن مظاهرة تمشي ، ولم يعد لها اول ولا آخر ، كانت تمتد من الباب الشرقي الى باب المعظم - وقد سدت الطرق ، واملأت بالناس ، وقام في كل مكان خطيب ، وافتن الناس في الاهازيج والتهافت والانشيد ، وتفتحت القرائع ، وتفتقت الالسنه ، عن روائع لم يستطع مثلها الشعراء ، ولم أر يوماً مثله الا يوم مقتل غازي وربما اذعت وصفه في حديث آت .

يا جلالة الملك فيصل ، هذا يوم من ايام بغداد ، شهدته وأنا رجل كبير ، فكان له في نفسي هذا الاثر ، ولا ازال كلما ذكرته ، استمدت منه حماسة وقوة ، فكيف بأثره في نفوس الشباب .

هذا يوم من ايام بغداد . لقد كانت بغداد على عهد ابيك قلب الوحدة العربية الذي ينبض فيه دم الحياة ، ثم يخرج منه قويا نظيفاً أحمر ،

أفترضي يا مولاي ان تكون بغداد علي عهدك ، قلب الحلف
الانكليزي ؟

وكانت حكومة أبيك تدعو المدرسين ليثيروا الطلاب احتجاجاً علي
عدوان الفرنسيين علي أهل الشام ، أفترضي يا مولاي أن تكون حكومتك
هي التي تدعو علي أهل العراق ؟

ولقد كتبت بأبيك أقول : يا غازي ، يا غازي ، أدرك أهل الشام ،
فقال لي أبوك : لبيك ، لبيك . أفترضي أن اهتف بك : يا فيصل أدرك
أهل العراق ، أنقذهم من نوري ، ومن عبد ايدت ، الذي ينفق أموال
العراق ، ويسخر سلاح العراق ، ليقتل شعبك شعب العراق ،
أرضاء لعدوك وعدو العراق ، وعدو العرب ، للانكليز ،
فلا ترد ؟

يا فيصل يا ملك العراق .

إن علماء العراق في السجون ، إن في السجن الإمام العلم الذي يفاخر به
هذا القرن القرون الماضية ، الشيخ امجد الزهاوي .

إن شباب العراق في القبور ، إن في القبر حفيد الإمام المجتهد الشيخ
محسن الحكيم .

ان ترى العراق مخرج بدماء أبناء العراق .

لقد نال أمة العراق من الأذى والضرر علي يد نوري ، ما لم ينلها مثله علي
أيدي الانكليز ، ولا علي أيدي المغول .

يا فيصل ، ندعوك الايامى الثاقلات .

يا فيصل ، يناديك اليتامى المظلومون .
يا فيصل ، دعوة الحق ، يا فيصل ، نداء العدل .
يا فيصل ، صرخة الوطن والعروبة والدين .
يا فيصل ، المدد المدد ، الغوث الغوث ، لا تترك شعبك يذبحه
الانكليز بأيدي زبانية نوري السعيد .
يا فيصل :

لقد كان على هذا العرش يوماً ملك نادته أسيرة من بلاد الروم ظلمها
أمروها : (وامعتصماه) فاهتز لندائها هذا العرش عرشك ، وماج لها
هذا الشعب شعبك ، وخرجت جيوش بغداد فلم ترجع إلا وفي ركابها
المجد والظفر ، أفيرضى رب هذا العرش اليوم ان تناديه الاسيرات في
بغداد فلا يجيب ، أسيرات لم يظلمهن رومي ولا بزانطي ، ولكن انكليزي
يلبس جلد عربي ، يظلمهن ويذبح أبناءهن ، ويقتل رجالهن ، وهن
يصرخن ، (وافيصلاه) ، فأين انت يا فيصل ؟

أين أنت يا ابن غازي ؟ لتسمع النداء .

نداء الاسيرات في بغداد ، نداء اخواتك وخالاتك ، وأمهات
شعبك .

فقم يا أيها المعتصم ، لا لتلبها على الخيول البلق ، ولا بالجحفل
الجب ، بل لتلبها بكلمة واحدة منك تقوها لهذا الظالم الفاجر .

قل له : دع الوزارة واخرج منها مذؤوماً مدحوراً .

اخرج منها فما يجوز أن يحكم رجل شعباً ، وهو يريق دماء أبناء هذا الشعب ، ويبيعه للأعداء .

لو كان الامر بتقتيل أبناء العراق يصدر باسم الملكة اليزابيث لهاب علينا أن نقتل بأيدي عدونا ، ولكل أمة في الدنيا عدو تنال منه وينال منها ، ولكن هذا الامر يصدره باسمك الرجل الذي خانك ووالى عدرك .

فقل له الكلمة التي ننتظرها منك ، من عروبتك ، من هاشميتك ، من ابن غازي ، قل له : اخرج !

قلها يا مولاي ، قبل ان يقولها الدهر بلسان البركان المتفجر^(١) .

قلها ، قبل ان تقولها الثورة ، التي تطيح بنوري ، إن الثورة لازمام لها ، فاذا لم تدفعها عنك بطرد نوري ، طرحت الثورة من العراق من هو اكبر من نوري ، كما طردت الثورة من مصر من كان اكبر رأس في مصر : فاروق .

وهذا يا مولاي نذير ، من حديق للعراق .



(١) لم يقلها فقالها الدهر بلسان ثورة قموز .

ثورة تموز في العراق

أذيعت يوم الثورة من محطتي دمشق وبغداد:

سافني القدر في مطلع شبابي الى الصحافة ، فاتخذتها لي حرفة ، وتنقلت بين الصحف حتى انتهيت الى الجريدة الوطنية الكبرى (اليوم) فكنت اعمل فيها . اكتب وأصحح وأراجع .

وكنيت رئيس لجان الطلبة في دمشق ، وكانت آخر ما افكر فيه ان يخطر لي على بال ان اكون موظفاً ، ولكنّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن .

واصبحت يوماً فاذا الجريدة قد أغلقت ، ولجان الطلبة قد حلت ، واذا أنا بلا مال ، وفي عنقي عيال ، فاضطرت الى الوظيفة ، وغدت معلماً في المدارس الابتدائية ، وكان ذلك من اكثر من ربع قرن ، وكان المستشار (راجه) هو المسيطر على المعارف ، وبينني وبينه تراث من قديم .

وكنيت افور بالحماسة واغلى من النشاط ، اكتب وأخطب وأثير.

الناس ، وكانوا يريدونني على السكون والخنوع ، فضايقوا بي وضقت بهم ،
وآذيتهم بقلمي ولساني ، وآذوني بالنقل والعقاب ، حتى اذا لم يبق للاحتمال
مجال ، وضقت بي السبل فررت الى العراق .

واقمت في العراق سنوات اربعاً ، شهدت فيها الثورة على ياسين ، ومقتل
جعفر . ثم رأيت سقوط بكر ، ومصرع غازي . ثم ابصرت نهضة
الفتوة ، وثورة رشيد عالي ، وعهد النكسة والانتقام ، حين عاد البلاء
على أيدي من كانوا سادة لنا وهم عبيد الاجانب ، وكيف صارت
الوطنية ذنباً ، والاخلاص جريمة ، وكيف كرم الخونة وشنق
الاحرار ...

... ورجعت من العراق وقد حملت منه ألف ذكرى ، وخالفت فيه
خمسة آلاف تلميذ ، صار منهم سبعة وزراء واربعة عشر عقيداً في الجيش ،
وصار منهم رؤساء استئناف ، واساتذة في الجامعة ، وصار منهم
شعراء وكتاب ، وتوكت في العراق قطعاً من نفسي ، وبقياً
من حياتي .

ولبثت على الوفاء للعراق ، الذي آواني يوم ضاقت بي بلدي ، وعرف
لي قدرتي يوم بخسني من كان منا حقي ، احنّ ابدأ اليه ، واذكر
أبدأ ايامي فيه ، ما اعرف من وفي له اكثر من وفائي ، ولا من كتب
عنه من درس فيه مثلما كتبنا نحن الثلاثة : الزيات ، وزكي مبارك ،
وانا^(١) ، وبقيت ابدأ أنني على العراق ، واذكر بالخير وبالإباء
وبالكرم اهله .

وكان يجادلني بعض من لم يعرف العراق من اخواننا ، ويقول : أما

(١) ولا اعرف من الشعراء من نظم فيه مثلما نظم انور المطار .

تري العراق ، قد استغذى ولان ، حتى وبطوه بجبل الحلف ، ثم خضع
وخضع ، حتى جرته به الى نصر العدو وحرب الأخ ، شيخ السوء نوري ،
وفى الشر عبد الآله ؟

فأقول : انتظروا .

ان العراق ينام ولكنه لا يموت ، انتظروا ؛ تروا كيف يفيق
الاسد ، فيقطع هذه الحيطان التي قيده بها هؤلاء الصبيان ...
وانتظروا ؛ وانتظرت ؛ فما تحرك العراق ولا أفاق .

وناديت فيصل من هذا المذبح^(١) ، يا فيصل انفذ العراق من عدو
العراق . يا فيصل احم نفسك من قتل أباك . يا فيصل . يا فيصل . فما
رد فيصل ، ولا حركته تلك الصبغة التي تحرك الصخر ، وما كانت بملك
حركة ولا ردا .

وهتفت بشعب العراق ، وذكرته ببطولاته وأجاده ، واعدت
عليه ذكر أيامه ، ومثل أيام العراق لا ينسى ، فما سمع ولا
استجاب .

وترك هؤلاء النفر من الخوارج ، يحولون أسداً في طرق بغداد ،
ويتسللون كلاباً في شوارع لندن ، حتى قطعوا حبل الأخوة بيننا وبين
العراق ، ليربطوه بذنب الانكليز .

فتفرق الشمل الجميع ، وتعادى الاشتاء المتحابون ، ومشينا نحن في

(١) أثبتت هذه المقالة في هذا الكتاب للذكرى والتاريخ .

طريق ، ومشى العراق في طريق ، بعدما كان الطريق واحداً ، والغاية واحدة ، وكتب على اذاعة بغداد ، بغداد العربية ، بلد الرشيد والمأمون ، أن تحمل قسطاً من عبء اسرائيل ، فتعاونها على سببنا وشتمنا ، والافتراء علينا .

وصار العراق (الرسمي) يعادي الوحدة ، ولقد كان العراق أول من هتف للوحدة وتحمس لها ، وجعلها درساً في المدارس ، وكان من اكبر أمانيّ تلاميذنا في بغداد ، اذا قرؤوا قصة الوحدة الايطالية ، والوحدة الالمانية ، أن يكون العراق (بيه مونت) أو (بروسيا) ، فيحقق الوحدة بيديه معاً ، يد الشعب بعواطفه ورغباته ، ويد الحكومة بسياساتها وسلاحها ، فكيف تبدلت الحال حتى صار ذنبنا ، عند حكام العراق ، اننا خطونا الخطوة الاولى في طريق الوحدة ؟

وكنت أعد نفسي من أهل العراق ، لاني اكلت مخبز العراق ، ورأيت خير العراق ، واتخذته بلدي بعد بلدي ، فما كان بعد دمشق مدينة أحب اليّ من بغداد ، ولا كان بعد العتابة نغم احلى في أذني من الايودية ، ولا كان بعد بردى نهر أجمل في عيني من دجلة ، ولا بعد الحور شجر أمتع لبصري من النخيل ، ولا كان بعد الصفيحة في أصباح الربوة أكلة أشهى اليّ من السمك المسقوف في أمامي الشط في بغداد .

ما اضمرت لبغداد غير الحب ، ولا أكننت لأهلها إلا الوفاء .

فكان جزائي من حكام بغداد ان منعت من دخول العراق سنة ١٩٥٤ ، ولم أدخله إلا بشفاعة رجال في بغداد ، من رجال العلم والادب ،

لا يستطيع أحد من الحاكمين ان يرد لهم شفاعة .

ومنعت كرة أخرى سنة ١٩٥٧ ، وما كان ذلك لاني كنت ضالماً مع المعارضين ، ولا لاني كنت مخصصاً في السياسة للحاكمين ، فما لي في السياسة ناقة ولا جمل ، ولقد كنت في العراق (كما أنا الآن في الشام) أعيش معتزلاً لا احضر حفلة قط ، ولا ادخل حزباً ولا هيئة ، ولا امشي الى هناء ولا عزاء ، ولا استقبال ولا وداع ، ولا ازور إلا نفراً تجمعهم في العدا الاصابع ، بل لقد منعت اول مرة ، لاني كتبت أقول ان النظام الملكي ليس من الاسلام ، وان الحكم في الاسلام ليس للأسرة بذاتها ، ولا لبيت بعينه ، وان الرئاسة لا تكون إلا بالشورى ولا تتم إلا بالبيعة . ومنعت بعدُ لاني كنت أول من أعلن قصة مصرع غازي ، وأنه لم يت ولكن قتله الشقي غير الشهيد نوري ، وابن عمه عبد الإله ، منعت من دخول بغداد وأنا أعد بغداد بلدي ؟

وأوذي فيها اخواني من أبناء مصر والشام ، وما في الشام ومصر إلا من يرحب بالعراقي ان رأوه عندهم ويفتح له قلبه وداره ؟ تفرق الشمل الجميع ، وتمادي الاخوة المتعابرون ، فكيف تبدلت الحال ؟

أي عين أصابت العرب في إخائهم واتفاقهم حتى ردتهم أعداء مختلفين ؟ وماذا أقول لمن يلومني في الدفاع عن العراق وأبناء العراق ؟ لقد عاد اللامثوث يقولون وأنا لا أجد في الدفاع عن العراق كلمة أقولها .

ماذا دهمى العراق ؟

وكيف يقيم على المذلة والضم ؟

كيف يدع نقرأ من عبيد الانكليز يقيدونه ويسوقونه ليكون يوم
الروح الفداء للانكليز ؟ كيف ؟ كيف يا ناس ؟

أترون العراق قد خلا من الاحرار ؟

أينخلو من الأسد العرب ؟

أم لقد أخاف العراق ، أن الطغاة نشروا الجواسيس في الناس
حتى لا يأمن المرء جاره في الحارة ، ولا تلميذه في الصف ، ولا زميله
في الديوان .

لأن الطغاة جعلوا الجار جاسوساً على جاره ، والتلميذ جاسوساً على
أستاذه ، والزميل جاسوساً على زميله ، واستعملوا لذلك الرجال
والنساء والاولاد ؟

وانهم يأخذون الناس من بيوتهم ، سرقة وغدراً ، بلا محاكمة ولا
ذنب ، الى حيث لا يدري احد ؟

وانهم كانوا الأنفواء ، وقيدوا الاتلام ، وعدوا على الناس الالفاظ ،
وأحصوا عليهم الأنفاس ؟

كيف خاف العراق ، وعهدي بمن في العراق أنهم لا يخافون ؟
وانتظرت الوثبة حتى اذا طال الانتظار ، ولم أجد شيئاً ، بثت
أو كدت ، وأوشكت أن أكفر بالعراق ، وشعب العراق .

حتى كان يوم الاثنين الماضي ، فرنة الهاتف في ساعة ما ألفت أن يكلمني فيها أحد ، ففقت مدعوراً .

وقلت : من هذا السج الغليظ الذي يزعجني عن منامي ؟
وفتحت فإذا أنا بقاتل يلقي اليّ كلمة واحدة ويضع الساعة . قال :
(افتح رادّ بغداد فوراً) .

قلت : قبحه الله ، وقبح رادّ بغداد ؟
ما لي لرادّ بغداد أما سمعته البارحة وهو يذيع في آخر الأخبار ،
نبأ سفر النقر الاشرار الى اسطنبول ؟

أعنده أسوأ من هذا الخبر ليتحفنا به من الصباح ، أم هي سلسلة جديدة
من الشتائم والأكاذيب .

وفتحت كارهاً فسمعت كلمة أطارت النوم من عينيّ ، وجعلتني
أفرك أذني .

ماذا أسمع ؟ أنا لا أزال نائمًا ، وهذه بقية حلم من الأحلام ، أم
أنا في يقظة ؟ ماذا أسمع : (إذاعة الجمهورية العراقية) ؟

وعدت أنأمل موضع الابرة لملي غلظت ، أو لعلها محطة سرية ،
ولكنني لم أغلط ، وليست محطة سرية ، إنما محطة بغداد !

الجمهورية ، أي جمهورية ؟

ماذا وقع بين عشية وصباحها .

أزالت الملكية من العراق ؟ أوثب الشعب ؟ أمن نصف الليل

الى مطلع الشمس ، يتبدل كل شيء ، وينهار العرش ، وتقوم
الجمهورية ؟

ولم أدر ماذا أفعل ، وأحسست أنني أشتبي أن أصرخ أو أن
أقفز ، اني اريد ان أوقف الناس كلهم لأزف اليهم البشرى ، ولكنني
تثبت وقلت :

يا ولد انتظر ، لعلها مزحة أو لعلّ مذبعباً انطقت الحماة لسانه بها
فقبض عليه ، ولبتت أسمع فلا أجد إلا ما يؤكد الخبر ، انه
الانقلاب .

وكانت فرحة للناس جميعاً ، وكنت احق بها لاني واحد من
أهل العراق ..

لقد حسبنا اننا خسرنا العراق ، فردّه علينا هؤلاء النفّر الأباة
الاحرار .

فيا أيها السادة الاحرار ، لكم الشكر ، لكم الشكر لانكم رددتم
عليّ بلدي الثاني ، وجعلتموني ارفع رأسي بعودة الاتحاد بعد ان اضناه
طول الانقسام ، لقد اعدتم لي ثقتي بالعراق وشعب العراق .

انها امة واحدة ، نص الله على وحدتها ، على لسان جبريل فلن تزيلها قوة
بشر ، ولن تهدمها ألوان على المصور ، ولا خشبات عند الحدود .

لقد عدنا امة واحدة ، فـ (الحمد لله) !

★ ★ ★

صورة سوداء من بغداد

نشرت في بغداد سنة ١٩٣٧

كنت نازلاً اليوم من الأعظمية الى بغداد ، في سيارة من هذه السيارات التي يدعونها (الباص) ، وكنت الى جانبي رجل مسلم على رأسه عمامة بلدية^(١) . ويبدو عليه انه تعدى الاربعين ، وبلغ سن العقل والرشد ، فسرتني بجواره . وهممت بان أفتح معه باباً للحديث ، نركب به الطريق ، فلم اكذ افعل .. حتى رأيتته يخرج علبة دخائنه (سيكاراته) ويشعل دخينه وينطلق الوقح قليل الحياء يدخن علناً .

لا يستحي من الله ان يراه على شيبته مفطراً في رمضان ، ولا ينجل من الناس أن يروه عاصياً فاجراً ...

فيحولات وجهي فاذا أنا بآخر يدخن في الطريق ، واذا هنالك ثالث في القهوة ، ورابع وخامس وسادس .. وما حثت من آكلين وشاربين ومدخنين ، فذهبت الى المدرسة فاذا غرفة المدرسين ، كأنها قاعة تدخين ، وكدت اقول ، كأنها (محششة) ، واذا اخواننا المدرسون.

(١) يشاغ .

المسلمون ، بدخنوا لا دين ولا مجاملة ولا قوة ارادة ... ولا شيء في الدنيا اسمه الحياء .

واذا المجاهرة بالعصيان سنة متبعة و (موضة) شائعة ، واذا اكثر الشبان ، أعني من عرفت منهم ، لم يدرسوا الاسلام ، وما لهم به صلة وثيقة ، بل انهم ليقربون من الالحاد ، ويجبدونه ، ويتمنون لو سار العراق على هذه الطريق العوجاء التي سار عليها جيرانه الاتراك ، والتي تؤدي به الى الهاوية .. لما وضع في نفوسهم المدرسون ، الذين تخرج اكثرهم في الكلية الاميركية ، من بغض الدين ، والزهد فيه ، وما يشبه ذلك من المبادئ الخبيثة التي أنشئت لأجلها هذه الكلية وسائر المدارس الاجنبية ، بلا استثناء^(١) !

وإذا هناك داء دوي فتاك ، اذا لم تنتبه له البقية الباقية من علماء المسلمين ، الذين يعرفون الاسلام ويغارون عليه ويعلمون أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الدين ، وأصل من أصوله ، وان المسلمين آثمون اذا هم تخلوا عنه جميعاً ، ولم تكن منهم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر - أقول : اذا لم ينتبه هؤلاء الى هذه الحالة ، ويعالجوها بالحكمة وبالموعظة الحسنة ، وبالردع وبالجزم ، اوشك ان يمضي الوقت ، ويمشي هؤلاء المسلمون الباقون في طريقهم ، ولا يبقى في العراق عالم ، فينصب الناس علماء جهالاً ، فيفتون بغير علم ، فيضلون ويضلون ...

(١) يجب على كل شاب مسلم ان يقرأ كتاب (التبشير والاستعمار) .

وأحسب الوقت كاد يمضي ، وأظن ان الظفر قد تم في العراق لهذه الفتنة الملعونة الرعناء^(١) . وإلا فما بالنا نقرأ في صدر جريدة من اكبر جرائد العراق ، مقالات حشوها الطيش والسخف والكذب والمراء ، مقالات كتبها صاحبها لا برأسه ويده ، بل فكر فيها بانفه وكتبها بختصر رجله ، يدعو فيها الى الحياة التي يريدونها ... وما هذه الحياة علماً ولا مجداً ولا صناعة ، فما يبالي بشيء من هذا ، ولا يفهمه ولا يصل اليه ادراكه ، ولكن هذه الحياة ... انشاء المراقص والحمارات ، وفتح المواخير في المنازل والاقبليات ، ولبس القبعات ، وما الى هذا ، بما يعرفه اهل هذا الفن الداعر المومس ... الخبيث !

وإلا فما هؤلاء المفطرين ، لا يجدون من يقول لهم كلمة ، او يمنعهم ، وما لهم - خيب الله آمالهم ، وأدنى آجالهم - جاعحون في طريقهم ، فعل الدابة الحرون لا رادع ولا مانع ؟

وهل من العلم والحضارة ان يتجرد المرء من دينه ، ويركب سبيل الشهوات ، ويتخطى حدود الشرف والاخلاق . اذا كانت هذه هي الحضارة ، وكان هذا هو العلم ، فلعنة الله عليهما وعلى من يدعو اليهما .

اننا قوم لهم دين ، ولهم كتاب ، اتبعه اجدادهم ، فتجسروا وأفلحوا ، وملكوا زمام الكون ، ولا سبيل لنا الى الفلاح إلا باتباع الدين ، وهؤلاء

(١) لنا في العراق اليوم من ناشئة الشباب قوم اعز الله بهم دينه ، ونصر شريعته ، واعلى كلمته ، وهذه علامة من العلامات ، على ان يحفظ هذا الدين ، وان العاقبة للمتقين .

الذين يقولون باللاييك ، وينكرون جامعة الدين ، يتكلمون بما لا يفهمون ،
ويعرفون بما لا يعرفون ، لانهم لم يدروا الدين ، ولم يطلعوا على أسسه
وأحكامه ، ولم يدروا ما هو ، وإنما يتكلمون على الظن ، كمن يشهد بالله
ان فلاناً لص سارق ، او كاذب محتمل ، وهو لم يعرف هذا (الفلانت)
ولم يلقه ، ولم يربطه به سبب من الأسباب ، أو يتكلم عن مدينة من
المدن ويصف شوارعها وسوقها ، وهو لم يرها ، ولم يقرأ عنها ، ولم ينظر
مصورها ، ولا سمع خبرها ، فلا يفترون أحداً بما يقول هؤلاء ، فما لكلامهم
قيمة إلا إذا درسوا وبحثوا وتكلموا عن فهم ... وإلا فهم أهون من
أن يصفى اليهم .

وانظروا بالله يا أيها المنصفون ... هذا الصيام ، أمر به الله تعالى
ورسوله ﷺ ، وكتب العلماء في أحكامه ومزاياه وفوائده ، مئات بل
ألفاً من الصحف نشرت في الشرق والغرب ، في القديم والحديث ،
فيأتي شاب احمق غرّ جاهل ، فلا ينظر فيما قالوا ولا ما كتبوا ، ثم يأخذ
لنفسه الحق في ان ينكر فائدة الصيام ، ويرد على الله ورسوله والآئمة
والعالمين من غير بحث ولا فهم ولا هدى ولا صراط مستقيم ؟

فأي فائدة وأي قيمة لهذا المقال ؟

ومثل الصيام الصلاة وسائر أحكام الدين . فأما أن يبين لنا هؤلاء
المجددون ، أو المجردون ، على حد تعبير الكاتب الكبير محب الدين الخطيب -
بالبحث الصحيح ، والحجة الدامغة ، ان أوامر الدين ، من صلاة وصيام
وحج . ونواهيه من ردع عن الكذب والحياة والزنا واللواط ، اما أن
يبينوا أنها شر وضرر ، وان ترك الصلاة والصيام والحج خير ، او

أب الكذب والزنا والسرقة هي الخير والفائدة ، وأما أن يعترفوا
بأنها خير ونفع ، ولكنهم قوم كسالى أو مقصرون أو أنهم يحبون
الشر ، وأما أن يتبعوا سبيل الدين ، ويكونوا مسلمين صادقين ،
لا مسلمين جغرافيين .

إن هؤلاء المجددين ليسوا إلا مقلدين بلا بصيرة ولا اطلاع ، مقلدين
للافرنج ، واني أناقش كثيرين منهم فآلعب بهم وأسخر منهم ، اعمد الى
اللفظة أو الحكمة من حكم علمائنا فأقولها لهم وأنسبها الى صاحبها العالم المسلم ،
فيمزؤون ويضحكون ، كأني قلت لهم نكتة من نكات جحا ، فأخذ
اللفظة مثلها في معناها او التي أقل منها ، لعظيم من عظماء الغرب ، فيطأطئون
الرؤوس ، ويسمعون ويعجبون .

لا يفرقون بين حق وباطل ، ولا يعرفون الحسن من السيئ . ولكن
يعرفون ان هذا غربي فهو حسن ، ولو كان الرقص والزنا والشيوعية
والاباحية والانتحار ، والموت الاحمر ، والبلاء الازرق ، والعيش الاسود ...
وان هذا شرقي ، او على الاصح اسلامي فهو قبيح ولو كان الصلاة والصوم
والصدق والمروءة والمجد والعلم والحياة .

وأنا لا أتمنى شيئاً ما أتمنى أب أبجد ملحداً واحداً ، أو مجدداً
يستطيع أن يناقش بالحجة والبرهان ، ويعرف شيئاً غير الهز والسخرية
والكلام الفارغ ، والتقليد الاعور ، ولكنني لم أجد الى اليوم إلا ببغاوات
تعيد منطق اوربا العقيم .

أقول العقيم ، لان العلماء من أهل اوربا لا يزالون بخير ، ولا
يزالون صادقين مخلصين ، ما بحثوا عن غير الاسلام ، فاب بحثوا عن

الاسلام ، فانما هو الخاط والكذب وتحكيم الهوى لا العقل ، والمصلحة
لا الحقيقة ، يضعون لنا الديناميت ، ثم يأتي هؤلاء المغفلون ، فيقولون ،
هاكم هذه الاحجار ابنوا بها صرح حياتكم .

ان هذه ديناميت يا مجانين !

★ ★ ★

استغفر الله فما أقول ان بغداد قد انقرضت هؤلاء المجددين المقلدين
تقليد الفرد ، الذي يفخرون بان نسبتهم اليه ، كما نفخر نحن أبناء آدم
بنسبتنا الى آدم النبي الكريم . ولكن أقول : ان مثل هؤلاء موجود
(وقد رأيت) في الشام ومصر ، ورأيت في مكة والمدينة ، ولكن
في الشام ومصر جهات اسلامية قوية يقظة ساهرة ، ترد كل سهم
في كبد مرسله . في مصر الفتح وما ولد في دار الفتح ، وبسبب الفتح
من جمعيات الشبان المسلمين والهداية ، وفي الشام الجمعيات الاسلامية
الكثيرة ، المسلمون الغيور ، وفيها جماعة الهداية الاسلامية قائمون بالمرصاد
لكل من يريد بالاسلام شراً ، وفي الحجاز حكومة مسلمة تقيم
حدود الله ، وتتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأين الجهات
الاسلامية في بغداد ؟

انني أسأل سؤال مستنير لا سؤال منكر ، وقد سمعت بجمعية
الشبان المسلمين وجمعية الهداية الاسلامية ، ولكنني لم أرها بل رأيت

الرجل الذي ملأ أنفي اليوم بدخان سيكارتة ، ورأيت زملاءنا المدرسين
الذين لم يدروا أن في الدنيا رمضان ؛ ورأيت الطلاب الذين كادوا
ينساقون مع هذا التيار الملحد ، ورأيت المساجد الخالية ، ورأيت
البدع الفاشية ؟

رأيت هذا كله ، ولم أر الجمعيات الاسلامية ؛ فأين هي ؟

أرجو ألا أعدم الجواب .

♦ ♦ ♦

للذكرى والتاريخ

بغداد في يوم غازي

كتبت سنة ١٩٣٩

أما رثاء الفقيد ، وبيان جلال الرزء فيه ، ومبلغ الحزن عليه ،
فتلك أمور كبرت عن أن يحيط بها (نظم من الشعر أو نثر من الخطب)
وبعد مناها عن كاتب مثلي ، قصير القامة واليدين ، فليكن همي في
أن أروي (مارأيت وما سمعت) .

ولقد رأيت عجبا ، وسمعت أعجب منه ، وشاهدت أحوالا
ربما ظمها القراء الذين هم في غير بغداد مبالغه من نسج الخيال ، ولكن
الله يعلم ، وأهل بغداد يشهدون ، أن الذي أقوله حق كله ، وأنا
ما زدت فيه ، ولكن نقصت منه ، وأنا لو ذهبت أستزيد فيه
ما استطعت ، ولا بقي للخيال بعد الذي كان مجال .

والذي رأيت أنا نزلت من (الأعظمية) مبكراً على عادتي ، فلم
أر على الطريق ما انكر ، إلا حركة عند (البلاط) ما لقيت لها

بالا ، حتى إذا شارفت المدرسة (ومدرستنا في ظاهر بغداد ، قريبة من باب المعظم) رأيت طائفة من الطلاب مجتمعين ، يتهايمسون ، ولكن الوجوه غير الوجوه ، فلما أبصروني أسرعوا إليّ يسألونني عن (الحادثة) ؟

فقلت وأنا خالي البال : أي حادثة ؟ اني ما سمعت بعد بشيء !

قالوا : لقد ساع في البلد أن الملك ...

فاضطربت وتوقعت أن اسمع عنه نبأ لا يسر ، ولقد أحببت الملك غازياً منذ شهور^(١) خلت ، حباً شديداً ، لم أكن أحبه من قبل مثله ، وصرت أرى فيه معقد الأمل ، وباب الرجاء .

فلما قال التلميذ ما قال ، خفق قلبي ، من توقع المكروه ، وحب الاستطلاع ، وروعة المفاجأة ، وما يصيب المرء في العادة في موقف مثل هذا ، وصعنت بالولد أسأله أن ، ما للملك ؟

وبالغت في الصياح حتى روعته ، وأثرت أحزانه ، فقال متعثراً يجر الحروف من فيه جراً :

— يقولون : انه ... قد مات !

فقلت : أعوذ بالله . اسكت وبجك ، ان هذا كذب فلا تنطق به ...

(١) صنع غازي قبل موته ما ادخل محبته على كل قلب ، وجعله صديقاً لكل عربي .

وأمرعت الى المدرسة والطلاب معي ، وأنا أوجر وهم يرجون أن يكون الخبر كذباً .

ولبت بعض الطلاب قائمين على الطريق ، ينتظرون مرور الملك كما يمر كل يوم ... فلما بلغنا المدرسة ، وجدنا كل من كان فيها من مدرسين وطلاب ، قد سمعوا الذي سمعنا ، وهم بين مصدق ومكذب .

ومرت ساعة ، ونحن على هذه الحال من القلق ، نسأل كل آت فلا نلقى عنده جواباً ، ونستخبر الهاتف (التلفون) فلا نسمع خبراً ، ثم أبصرنا علم الثكنة العسكرية التي أمامنا قد نكس ، وجاءنا الأمر بتنكيس العلم ، وجمع الطلاب في غداة الغد للتشيع ..

فعلنا أن الناعي قد صدق ، وأن الأمل قد خاب !

. . .

ونخرج المدير ، وهو الرجل القوي ، المكتمل الرجولة ، ليعلن الأمر لما تمالك نفسه أن يكى ، وهو ينمي لشباب (الغريبة المتوسطة) سيد شباب العرب ، وما أمسك الطلاب أنفسهم أن يصيحوا (وهم ثمانئة شاب يعدون مثال النظام) صيحة واحدة ، وان يبكوا بنحيب وعويل ، وأن يمزق بعضهم ثيابه ، وان يغيب على بعض . وما أكرم القاريء اني حسبت ذلك رياء وتصنعاً ، وكرهته أول الأمر ، واشتأزت منه نفسي ، ولكني ما لبثت ان أيقنت انه حق وصدق ، وان منشأ هذا الحب العجيب الذي نما في قلوبهم من مشور فقط للملك الجندي ، وهذا الحزن الطاعني على وفاته الفاجعة ...

وخرج الطلاب بعد ذلك ، وخرجت على الأثر ، فما دنوت
من (باب المعظم) ، حتى سمعت نواح النساء ونحيبين ، ورأيت
الميدان كله ممتلئاً بالناس ، يتدافعون ويستبقون البلاط ، باكين
مفجوعين .

مشهد للحزن ما أحسب ان اروع منه يكون ، فضالفت الجماهير ،
وقصدت شارع الرشيد ، فلم ابلغ (الصابونية) حتى رأيت مئات من النساء
تحكي ثيابهن ومظاهرهن الغنى والحشمة ، وهي ينشدن شعراً عامياً ، او
شبه شعر ، ما فهمته ولكنني تبينت فيه ذكر غازي ، وشبابه الغض ،
وذكر الموت .. وكما قلن بيتاً لطمن وجوههن ، وبكين بحرقه وألم
فما رأهن أحد إلا بكى أشد بكاء . .

ورأيت من بعد آلافاً من الناس ، قد حملوا شاعراً عامياً ، فهو
يقرأ لهم شعراً كله تفجع وألم ، وهم يلطمون ويضربون صدورهم ، أو
يشيرون باللطم . فلم أطق المسير ، ولا الشهود ، فملت الى (الثانوية)
وكانت خالية مقفرة ، وعلى بابها علمان متشعان بالسواد ، فغادرتها
أفتش عن أخي أنور العطار فما هي حتى جمعتني الله به ، فقلت له :

ان المسير في شارع الرشيد مستحيل ، والصبر على رؤية هذه المواقب
الباكية أشد استحالة ، وحسبنا ما في نفوسنا من الألم ، فلم بنا
الى الدار (في الكرخ) فانها أهدأ ، ورأى ما رأيت فسرقنا
نؤم الجسر .

وكان اليوم عاصفاً غيفاً ، والنهر مضطرباً مرعباً ، كأن الطبيعة

قد روعها من النبا ما روعنا ، ففقدت هي الاخرى اتزانها وهدوءها ،
فما ظننا والله إلا ان الجسر منقطع بنا ، لما رأينا من اضطرابه
واهتزازه ، ولعب الرياح والمياه بالعوامات التي يقوم عليها ، ولكن الله سلم ،
فبلغنا الكرخ .

واذا بالكرخ قد نشرت فيه الاعلام ، أعلام (السبابة) السود ،
ودقت طبول المآثم ، وخرج أهلوها على بكرة أبيهم ، مواكب ،
مواكب :

النساء ينحن ويلطمن الوجوه ، والرجال ينشدون ويضربون
الصدور ، وقد تعروا وتكشفوا فعل المنهيين للصراع ، حتى رأيت
الصدور وهي من الاحمرار كأنها هي دامية . والاطفال ، يا لله
يا فعل الاطفال .

لقد تعروا مثل الرجال ، وطفقوا يضربون صدوراً ، علم الله انها
ما تحمل الضرب ولا تطيقه ...

وكانت المواكب في كل شارع وفي كل زقاق ، فكلمنا تركنا واحداً
منها اصطدمنا بآخر ، حتى أزمعنا آخر الامر ان نعود الى جانب الرصافة
من الجسر الآخر ، فما بلغناها حتى رأينا فيها ما أنسانا فعل اهل
لكرخ ، وكان كل موكب يحمل صورة الملك الشاب مجللة بالسواد ،
رينشد أشعاراً لم أحفظها ، ولكني فهمت منها كثيراً ، فما فهمت
مقالة قوم :

الله اكبر ، يا عرب ، غازي انفق من داره .
وامتوت اركان السما ، من صدمة السياره

وقول قوم ما معناه :
قولوا ليفصل في الدهر يستقبل وليده
في اشعار هذا سبيلها .

ولعل القراء لا يدركون قوتها ورزغها لاني لم احسن كتابتها ونقلها ،
ولكنهم لو سمعوها من أفواه اصحابها ، وراوا بكاءهم ، وشاهدوا صدورهم
المحيرة ، لعرفوا أي شيء هي ، ولعلموا أن بغداد تعرف كيف تفرح ،
وكيف تغضب ، وكيف تحزن !

ومن أعجب ما شاهدت فتيات المدارس . وهن يلطمن وجوهها يؤذيها
المس ، ويدمها النسيم ، لا يشفقن على أنفسهن ، ولا يفتأن ما سرن
يبكين ويُبكين . وباليطني فهمت ما كن يقلن فانه أشجى وأعجب مما
كان الرجال يقولون ..

وبقيت المدينة على هذه الحال الى صباح اليوم التالي ، الى ساعة التشيع
التي اعلن العجز عن وصفها .

فلما تم الدفن ، وأودع الثرى الملك الشاب ، الذي كان يفيض قوة
وحياة ، وسحوت الطيارات الوطنية تحمل شارات الحزب السود
الطوال ، وانطلقت المدافع تعلن انتهاء الدفن ، وأيقن الناس ان
المصيبة قد تمت ، وأن الرجاء قد احى ، أفاقوا كمن يفيق من نومة

مزعجة رأى فيها الحلم المروع ، فيرى الواقع أشد روعة ، فأسلموا الأمر
إلى الله ، وصمتت هذه اللسنة التي طالما أنشدت ورثت وتفجعت ،
وجفت هذه الدموع التي طالما جرت وذرفت ، وانقضت هذه الجموع
واجبة ما فيها من يتكلم أو يتبس ، وفي القلوب نيران تتأجج ، وبين الأضالع
الهيبة يستعر .

ولم تسكت آخر طلقة من طلقات المدافع التسع والتسعين حتى عم
المدينة صمت عميق ، وغدت كأنها قبر واحد ، هو قبر غازي .

للذكرى والتاريخ

يا غازي ... عليك رحمة الله !

أذيعت من محطة الاذاعة العراقية يوم مات غازي

عليك رحمة الله (يا غازي) الحبيب^(١) .

يا فخر الشباب ، يا من لم يتمتع بالشباب !

يا سيد العرب ، يا من روع فقه العرب .

يا بدر العراق الآفل ، يا أمل الشام الذاهب ، يا دنيا من

الفتوة والبطولة والنبيل ، طوتها كف الموت (يا غازي) عليك

رحمة الله !

بالأمس استصرختك وأنت أملنا وملاذنا ، وأنت عوننا على الدهر

الظلم ، والعدو الغاشم ، أفانوم اليوم لأرثيك يا أملنا وباملاذنا ؟

أقف على قبرك الطري مودعاً باكياً ، وقد كنت أقف على بابك

العالي مستغيثاً ومستصرخاً !

قد يظن بعض القراء الآن اني كنت من اشباع غازي ، او كالت لي به صلة ، ولا والله ما كان لي به او بغيره اتصال ، وما وثيقته هذا الرثاء ، الا لانه صنع قبل ان يموت ما جعله صديق كل محب للعرب وكل عدو للانكليز .

أخاطبك اليوم من وراء القبر وقد كنت بالأمس ملء الكون حياة
وقوة وشبابا ؟

ليتني ما عشت حتى أرى هذا اليوم !
ليت يدي ما طاوعتني حتى أكتب هذا المقال !
ليتني ما بقيت حتى أرثيك يا غازي !
(يا غازي) جل المصاب وما لنا فيه يدان .
(يا غازي) عظم الخطب وخافت الحيلة .
(يا غازي) لو كان يفتدى ميت لفداك العرب بأنفسهم !
(يا غازي) قد فقدناك فعليك رحمة الله !
على شبابك الكامل ، على بطولتك النادرة ، على أيامك الحلوة ،
على ذكرياتك الخالدة ، على ووحك (يا غازي) رحمة الله !

. . .

أفي عشرة أيام يدور الفلك ، وتبدل الدنيا ، ويستحيل عيد مولد
الملك الشاب الحبيب ، الى ماتم الملك الشاب الحبيب ؟

أفي عشرة أيام تمر دنيا كاملة ، تبدأ بأعظم عيد عرفه هذا الشعب
هو عيد ميلاد (غازي) ، ونختم بأجل مصاب رآه ، وهو
المصاب (بغازي) ؟

من كاث يظن وهو يشهد أفراح هذا الشعب في (٢١ آذار)
يوم الربيع الطلق ، ويوم (غازي) الذي كاث أمرع من الربيع

وأبى ، أن الفجيرة الكبرى كامنة في الغد القريب ، وأن هذا الشعب
سيلاطم وجهه ، ويمزق ثوبه حزناً على (غازي) ؟

أحسست بالغد القريب فذهبت تستعجل القدر لنهيء لأمتك كل شيء
قبل أن تمضي ، فعرضت جيشك يوم الثلاثاء لتؤكد لها القوة والأيدي ،
وفتحت السدة يوم الأربعاء لتضمن لها الحضارة والخصب ، وعطفت
على آلام سورية لتنشئ لها الوحدة والعزة ، وأجريت الحيل يوم الجمعة
لتعلم وليدك الصغير كيف يكون فارساً قبل أوانه ، كأنك شعرت أنا
سنفجع فيك قبل الأوان ؟

لقد كنت قريباً منك يوم (عرض الحيل) ، فرأيت في
عينيك وأنت تراقب ابنك ، معنى من معاني الغيب ، ولكنني
ما أدركته .

ومن أين يخطر على بالي أنك كنت تودعه وتفكر فيه كيف يفقد أباه
ويجد الملك ، فلا يدري ما الملك ولا يني يتنادي : بابا ... ؟

من كان يظن أن الملك الشاب ابن الخمس والعشرين يموت ؟

من كان يظن أن هذه الهبة الكبرى إنما هي استعجال للقدر ،
وأنت هذه الأيام العشرة إنما هي الحاقمة الباردة لتلك الحياة
البليغة ... ؟

ولكن هل تم كل شيء حتى تستريح (يا غازي) ؟

لقد وعدت (وفد العروة) أن تشرفهم بلقائك وما عهدناك أخلفت قبل
اليوم وعداً .

لقد كمل الجسر العظيم الذي لم ينشأ مثله في عهد الرشيد والمأمون ، فأين
أنت لتفتحه بيدك وتخطو فيه أول خطوة ؟
لقد وصل الخط الحديدي الى الموصل أفلا تفضلت فرعيته
وافتتحته ؟

لقد أجمعت أمة الشام على نصبك ملكاً ، وتسليمك عرش أبيك
على رغم الظالمين ، فأين أنت لتسكن قصر أبيك في دمشق وتحتل
عرشه فيها ؟

لقد نهى العرب ليمشوا تحت لوائك الى قم المجد وذرى العظمة ،
فتقدم با قائد العرب يا مليك ؟

وأين قائد العرب ؟ أين المليك ؟

لقد مشى الى رحمة الله . فإنا لله وإنا اليه راجعون !

. . .

أحين امتدت المعضلة ، واستحكم الأمر ، ورجوناك للخطب لا يرجى
فيه إلا أنت .. ؟

أحين تعلقت بك الآمال ، وأقبلت عليك القلوب ، وغدوت حبيب
الشعب المقتدى .. ؟

أحين تمت بك الافراح ، وكادت تتحقق بك المنى .. ؟

اللهم لا اعتراض ...

اللهم لقد حرمت كل شيخ منا ابنه ، وكل فتى أخاه ، وكل صبي أباه ،
حين أخذت سيدنا وحبیبنا وملكنا غازي !
اللهم فارزقنا الصبر ، وأین منا الصبر ؟

. . .

(يا غازي) ارفع رأسك ساعة وانظر الى شعبك .
إنه بحار ساهدا يصنع ، فهو يسكت واجماً ، ثم يشور نادباً ، ثم
يستغزى الالم ، فيقرع الطبول ، ويرقص رقصة اليأس .
إنه يحمل صورتك مجلدة بالسواد فلا يراها أحد حتى يبكي ، على أنهم
حملوا صورتك في الافئدة ، ونقشوها على صفحات النفوس ، فانت من كل
قلب حبه ، ومن كل عين سوادها
اسمك آفة على كل لسان ، ودمعة في كل مقلة ، وخفقة في كل فؤاد ،
ومناحة في كل بيت عربي .
فيا غازي ، عليك رحمة الله !

. . .

يا غازي ! لقد لحقني اليوم طفل ما أحسبه بلغ الرابعة ، فجعل يطلب
مني بإلحاح ويشير بيديه ، فأعطيته فلسين فألقاهما في وجهي ، فزدهما
فروسي الاربعة ، فتفهمت قصده ، فإذا هو يطلب شارة سوداء ، كأنني

أضعها في صدري ، ليعلن بها الحزن عليك ، فدفعتمها إليه وهو يذكر
اسمك ويبكي !

لقد رأيت مجوزاً تنظر الى رسمك المجلل بالسواد وتبكي ،
كأنما تبكي فيك ولدها الوحيد ، وهي تظن أنه ما يراها من
أحد إلا الله !

لقد أغمى على كثير من الطلاب والطالبات ، لما سقط عليهم
الحجر الأسود .

لقد احمرت من اللطم صدور وخدود ، يؤذيها مس النسيم !
يا غازي ، يا أيها الفتي القوي ، يا أيها الفارس الطيار ، ألم تعد تستطيع
أن ترفع رأسك مرة أخرى ، ترى ما صنع شعبك ؟

لقد متّ من القضاء مرة ، ولكننا متنا من الحزن ألف
مرة ، وسنموت من الحزن ألف مرة ، وإن نذسك (يا غازي) ،
مثلك ما ينسى !

. . .

الذي نادى بك ملكاً منذ أيام ، وكنت أنت أمله لم يبق
بك فيك اليوم كل شهيد من شهدائه . إنه كان يحبس
فلمن يحبس الدمع من بعدك ؟

التي كانت تتلقى ابنها القليل وهي تهتف باسمك ،

الى قطعة نشرتها في جريدة البلاد قبل ذلك بأيام استقيث فيها ، فكان جواب.
ة تنصر فيها للشام ما رأى الراي مثلها !

لم يبق لها من تهتف باسمه من بعدك !

(يا غازي) من لاطفال الشام ، من لنسائه ؟

من لضعافه الذين يسومهم القوي ألوان الحسف ؟

(يا غازي) من لهم ، وباسم من يهتفون من بعدك ؟

(يا غازي) ما تيم لفقدك فيصل الصغير وحده ولكن فقدك يتم كل عربي .

ما تيم فيصل الصغير أبداً ، ما تيم ، إن كل عربي له أب وصديق ،
إن له في قلب كل عربي مكاناً !

أسقية أنهم أودعوك تحت الثرى ؟

(يا غازي) إني والله ما أصدق أنك مت !

(يا غازي) لقد سمعت الخبر فكذبته ، ولعنت نأفله وانتظرت أن
أراك طالماً علينا ، تمرّ مرّ النسيم الناعش ، مرّ الرجاء الحلو بخيال
الآيس الحزين ، تحيي شعبك ، وتسبع عليه القوة والحياة بابتسامتك
المنيرة وفتوتك الباسلة .

وطفقت أراقب الساعة أحسب الوقت فلم تمر ، فشككت ولكني لم
أصدق ما قال المرجفون .

ورأيت النساء يبكين ويندن ، فبكيت والله ، ولكني لم أصدق
ما قال المرجفون .

وشاهدت بغداد وعمل شوارعها البكاء والحسرة والندب ، ولبثت

أشك ولبت أرجو ، حتى سمعت المدافع ووعيت الصيحة ، فلم يبق شك
ولم يبق رجاء .

لقد تحقق النبأ فواحسرتاه ... لن نراك (يا غازي) طالماً علينا .

لن نبصر من بعد موكبك ولا ابتسامتك ولا نحيبتك ، فيا غازي في
ذمة الله وأمانه ، يا غازي عليك رحمة الله !

. . .

يا أهل بغداد !

مات غازي فابكوا واندبوا ، فعلى مثل غازي يحلو الندب
والبكاء .

يا أهل بغداد !

ما فجعتم فيه وحدكم ، ولكننا فجيعة العرب بسيد العرب . لقد كان
منار رجائنا (معشر الشاميين) فانطفأ المنار .

لقد كان لنا مناط الأمل . لقد كان لنا كل شيء ... فيا أهل
بغداد كلنا في المصيبة سواء .

وعلى غازي رحمة الله والسلام .

. . .

من دمشق الى « دير الزور » ..

كتبت سنة ١٩٣٩

اذا صح ان يكون في المدن سفراء ، فمدينة
الدير سفارة عراقية في الارض الشامية ، وما
دخلت الدير الا ذكرتي العراق ، بظهورها
ومغربها ، ولهجة اهلها - وما دخلت الموصل
الا ذكرتي حلب . لذلك اثبت هذا المقال في
كتاب (بغداد) .

الى دير الزور^(١) ..

استعدوا يا سادة ، قد أظف الرحيل ، وشدت الأهداج ، فودعوا
الأحبة والصحاب إن كنتم تطبقون الوعا ، وخذوا طريقكم الى (المرجة)
ففيها الموعد الفجر .

وأسرعوا لا يشغلكم جمال الغداة ، ولا سيحور السحر ، وإث ملأ
السماء والأرض والنفوس شخمة وفرحة وبهاء ، فحرام على ذى الاعمال ، أن
يفتنه عنها الجمل ...

(١) نقلت اليها مدرسا في ثانويتها سنة ١٩٣٩ ، اثر حادث في المدرسة ، في حفلة
اقامت في ذكرى مولد النبي فاعتدي فيها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان على يدي
لصرة الحق وخزي المتدي .

ها نحن أولاء في (المرجة) ، وما هو ذا صوت المؤذن يثني في
الفضاء مشى البرء في الاجسام ، والطرب في الاعصاب ، فيكون لهذه
الدنيا نوراً وطهراً وعطراً ، وما نحن أولاء نصلي الصبح في (جامع يلبغا)
الذي سرق نصفه العثمانيون فجعلوه مدرسة ، كأن الارض قد ضاقت
بالمدرسة حتى ما يتسع لها إلا الجامع .

ولكن الاصوص لم يكونوا حذافاً ، ولم يستطيعوا طمس الآثار ،
ففسوا (المئذنة) لم يسرقوها فلبثت قائمة تشهد عليهم ، كشهادة
(منارة سوق الفول) على أهل بغداد ، أنهم سرقوا (المسجد
الجامع) الذي كان قطب الارض ، وأكلوه ، وادعوا أنهم
مارأوه ...

وما نحن أولاء نخرج فنرى السيارة وعليها الاحمال ، ولكن ما لها
لا تمشي ؟

ألم يأن الأوان ؟ ألم يؤكدوا لنا أن الرحلة الفجر ؟ لقد مضت
صف ساعة ، ومضت ساعة ، وملأت الشمس الدنيا ، وأمتع الضحى ،
هي واقفة ، ترقب أحد البكوات حتى يصحو وتفرك الجارية
جليه ويغتسل ويأكل ويلبس ويحيى متبختراً . . . فلماذا منعونا نحن
لننام ، وألزمونا الحضور في الغلس ، في برد كانون ، وقرّ الليل ؟

وما هذه الحصومات والمعارك ، وهذه الالفاظ الوسخة التي يقذف
بائع ومعاونوه في وجوه الركاب ، لأنهم طالبوا بحقوقهم
الظلم ؟

وما لشركة (نون) الانكليزية تسير سياراتها كما تسير عقارب الساعة ،
لا يسبق عقرب ولا يتأخر ولا يقلقه شيء ؟

أكتب علينا أن نظل أبداً أهل خفاف في المواعيد ، وكذب في
الاحاديث ، وفوضى في المعيشة ، لا نحن اتبعنا ديننا ، دين الصدق
والنظام ، ولا نحن قلدنا الاوربيين في فضائلهم ؟ ما قلدهم إلا في
الرفائل والموبقات !

. . .

لقد دنا المسير ، و (رغت)^(١) السيارات ، فاستنجدوا بقرائنكم
لتسعفكم بالقول المحلى واللفظ المعسول ، واعتصروا العيون واستطروها
الدمع ، فما يحلو بغير الدموع الوداع ، وما وصفه شاعر إلا (زعم ...)
أنه بكى ، فكان الشعراء ... إذا أزمعوا وداعاً وضعوا البصل في
عيونهم ... وإلا فكيف تجود بالدمع عند كل طلب كأنها (حنفيات) الحمام ،
أو كأنها مقل الحسان ؟

وتخذوا مقاعدكم قبل أن يشتد الزحام . ولكن من أين ندخل وهذه
السلال والعمر والحقائب بين الارجل ووسط الممرات ؟

وما هذا الضيق في المقاعد ؟ هل هي رحلة دقائق من دمشق الى دمر ،
أو من مصر الى المعادي ؟

إنما رحلة يوم كامل بلبه واكثر نهاره أفضيه محبوسين في هذا

(١) الرغام للابل .

الصندوق ، مقيدن بالاصفاد ، لا نستطيع أن نحرك يداً ، ولا نعد
ساقاً ، ولا نتلفت ؟

أنقارم الشركات الأجنبية ونحاربها بمثل هذه السيارات ؟
يا قوم إنكم بمثل هذا تجعلون الناس يترضون عن الأجانب ، ويلعنون
لأجلكم كل شيء وطني !

. . .

لقد جرت السيارة وباسم الله مجراها ومرساها ، ها هي ذي تخرق
شارع فؤاد الاول ، وتقطع شارع بغداد أفخم شوارع دمشق وأطولها ،
الذي فتح من ربع قرن ولم يكن فيه إلا خمس بنايات ، لأن البلدية
أرادت عمران دمشق ، فوضعت للبناء فيه شروطاً لا يمكن معها البناء ،
إلا إذا قامت حرب عالمية ثالثة ، وصار كل الشاميين لصوصاً أي
(أغنياء حرب) ...

لقد بلغنا (جسر تورا) فودعنا دمشق بنظرة أودعوها حبة
القلب ، وقرارة اللب ، فما تلقوت إذا فارقتم دمشق مثل
دمشق ، وأين ؟

أين مثل فتونها وسحرها ؟ وأين مثل ثقاها وطهرها ؟ أين قبة تنطح
النجم كقببها ؟ أين في الأرض غوطة كغوطتها ؟ أين نهر يسيل شعراً
وفهباً كبرداها ؟

أين مثل ربوتها وشاذرواتها ، ومزنتها وميزانها ؟

أين في الدنيا ربيع كربيها ، وزهر كزهرها ، وثمر كثرها ،
وكرم ككرمها ؟

توتوا منها بالنظرات تكن لكم في طريقكم زاداً ، وفي
غربتكم أنساً ...

. . .

هذه (دوما) قصة الغوطة فيها خمسة وعشرون ألف ساكن قلّ فيهم
من يتفرغ للعناية بدار لذلك توت دورهم زرية منخفضة السقوف ، ضيقة
الابواب ، وقل فيهم من يعتني بشوب أو يحرص على علم ، ما لهم هم إلا
الزراعة فهم أقدر خلق الله عليها ، واصبرهم على مكارهها ، لانهم يشتغلون
لأنفسهم وذرائعهم ، لا (بك) من البكرات ، ولا الحاجة من
الحواجات ، وقلّ فيهم من لا يملك قطعة من الأرض ولو صغرت ، يعيش
بها ولها ويموت عنها ، ليس فيهم أسيرة يستعبدها الملاك هذا الاستعباد (الحر) .
ويظلمها هذا الظلم (القانوني) . . فينظر إليها كما ينظر الى حميره وأبقاره ،
ويعاملها معاملة ، فيسكنها في مثل زرائعها ، ويطعمها قريباً من طعامها ،
ولا يراها أعلى قدراً منها ، يشغلها السنة كلها تكدي وتشقي ، لتقدم له ثمن
سكرة من سكراته ، أو ليلة (حمراء) من ليلاته ، تريق عرق جباهها
على أفدام عشيقاته ، وتبذل حياتها ابتغاء مرضاته ، ثم لا تنجو من غضباته
ونزواته !

إنما أرضهم هم ، وهم أصحابها ، ولذلك ازدهرت وأينعت حتى صارت
أجمل أرض في الوجود . فانظروا إليها من حولكم ، الى هذا البحر يروج

بالاشجار ، تتمايل اغصانها ، وتتعانق أفنانها ، تتوجها إذا جاء الربيع ألوان
الزهر ، فتكون ابتسامة الزمان على فم الثرى ، وتثقلها إذا حل الصيف
أنواع الثمار ، من المشمش عشرين نوعاً ، حبّه كالتفاح استدارة وبهاء
لا كمشمش مصر الذي يشبه في صغره حبّ الزيتون ، ومن التفاح أربعين
نوعاً ، والكهثرى عشرين ، والعنب خمسين نوعاً معدودة عدّاً ، والدراق
والخوخ والجائونك والسفرجل والجوز واللوز والتين والزيتون والتوت أنواع
شقي وأشكال .

وإلى السواقي تسعى فيها تحمل الحياة من بردى الى هذه الارض المباركة ،
يميد على عوافيها الحور ويرقص الصفصاف ، وتنساب عروق البطيخ
والشمام والقشاء والخيار ، وتضحك من حولها حقول القمح ، ومزارع
(الحُضار ...) .

هذه هي الغروطة : بستان واحد ، مساحته أكثر من ثلاثئة مليون
متر مربع ، متصل الظلال ، متلاقي الاغصان ، كل شبر منه ثروة وجمال ،
وكنز لا ينفد على الإنفاق

لقد جازت (السيارة) دوما ، فانظروا اليها فقد كادت تختفي مناراتها ،
كما اختفت دمشق إلا جبلها الخالدين ، قريعي الدهر ، حليفي الخلود : قبة
النسر من الاموي ، وهامة الصخر من قاسيون .

وهذي كروم دوما ، يضل البصر في رجاها^(١) ويقصر عن
مداها .

(١) الرجا : واحد الارزاء .

ففيها (العنب الدوماني) الذي سارت بذكره الركبان ، فمن لم يأكل
منه لم يأكل عنباً إلا على المجاز ...

ولكنكم مررتم بالغوطة وكرومها في الشتاء ، فدهشتم وما رأيتم إلا
حطبها ، فكيف لو جزتم بها الربيع فشاهدتم الهي من زهرها ، أو سلكتوها
في الصيف فجنيتم الشهي من ثمرها ؟
اذن اقلتم : لا رب إلا الله ، ولا بستان إلا الغوطة ا

. . .

لم يبق الآن أمامكم الا الصحراء ، ولكن هذه الصحراء كانت يوماً
من الايام سهولاً مبرعة ، وكانت اكثرها منازل عامرة ، وكانت تفيض
بالخيرات وتزخر بالظلال ، ايام الملوك الغر العيشين سادة الدنيا ، بني
أمية ، الذين حملوا راية الاسلام الى اقصى المشرق والى اقصى المغرب ،
من اطراف الصين الى اواسط فرنسا ، فنصبوها على قبة الفلك ، ودعوهما
بالعدل والنبيل والفضل ، فما كانوا فاتحين كالفاتحين ، يغلبون بالقوة ،
ويعلمون بالسطوة ، فان زالوا زالت آثارهم ، ولكن كانوا مجاهدين ،
وكانوا بازين ، وكانوا عبقرين ، فجعلوا هذه البلاد كلها اسلامية
عربية الى يوم القيامة . وكان لهم الفضل على كل مسلم ، في هاتيك
الاقطار حتى تقوم الساعة .

رحمهم الله ، وغفر لهؤلاء المؤرخين ، الذين حاولوا ان يتقربوا الى
اعدائهم ، باطفاء هذه الشمس التي بهرت العيون ، فجمعوا غبار الطرق

وجعلوا ينفخونه عليها حتى تمزقت صدورهم ، والشمس ساطعة لم تنطفئ ،
ومن ذا يطفىء نور الشمس في رآد الضحى ؟

غفر الله لهم ، فقد جعلوا هذه المدينة لما نزلوها سيدة المدائن ، ورفعوا
قدرها حتى ذلت لها نوارند ، ودانت قرطبة ، وخضعت سمرقند ، وطأطأت
لها القسطنطينية ، فأضعنا نحن من بعدهم عزها .

إن الارض تعمر أبداً وبلادنا تمشي الى الخراب .

إنكم ستعمرون الالية على المدينة التي قارعت روما يوم كانت روما عاصمة
الأرض ، ونازعتم مجدها وسلطانها ، فلا ترون في مكانها إلا قرية اسمها
(تدمر) ، أفرايتم كيف تمشي الى الوراء ؟

إن ديار الشام التي يسكنها اليوم بساحلها وداخلها ، وشمالها وجنوبها ،
خمسة ملايين كان فيها يوماً من الأيام خمسة وعشرون مليوناً^(١) . وكان في
العراق مدينتان متجاورتان ، في كل منهما مليونان ، وأهل العراق كله
اليوم خمسة ملايين . وإن بين هاتين المدينتين اليوم على الطريق جسراً
قائماً في الفلاة ، كان تحته نهر اسمه دجيل ملاً الشعراء بذكره
الاسماع ، يسقي مدينة اسمها حربي ، زخرت بأخبارها صحف التاريخ ،
فمحيت المدينة ، وجف النهر ، ولم يبق إلا جسر قائم في الفلاة .

(١) هذا كلام يتناوله الناس وقد كنت أقول به يوم كتبت هذا الفصل ، ولكنني ثبتت
الآن انه غير صحيح ، وإن في الشام اليوم من السكان أكثر مما كان فيها في كل
وقت مضى .

وكانت في البصرة عشرة آلاف قناة ، فلم يبق فيها اليوم إلا مئة
وثمانون قناة .

نعم لقد عدنا الى الوراء ولكن عهد التأخر قد انقضى .
لقد وقفت القافلة تجمع شتاتها ، وتعد عدتها ، لتشي في طريق الجدا
مشى الأجداد ..

لقد عرفتنا المصائب في فلسطين والمغرب ومصر والشام ، أن الطريق من
هنا : من الشرق . .

من الشرق يطلع فجر الخلاص ، أما الغرب فلا يجيء منه إلا ليل الظلم
وسواد الاستعمار ...

هذه حقيقة تدرس في المدارس الأولية ، ولكن في الناس جهلاء لم
يتعلموها بعد !

. . .

يا إخوتائنا . إن هذه السفرة متعلمكم الصبر .

إنكم ستتعبدون حتى تملوا الحديث ، وتسكتون حتى تكبروا
السكوت ، وتأكلون حتى تعافوا الأكل ، وتجوعون حتى تشتهوا
الطعام ، وتنامون حتى تشبعوا من المنام ، وتستيقظون حتى تتمنوا
المجوع ، وأنتم محبوسون في هذا الصندوق ، مصفدون بالأغلال ،
فأين هذا من رحلات الأجداد على الإبل ، يستمتعون بالحرية والانطلاق

لن ؟ تقولون أنكم اختصرتم الزمان ... وماذا في اختصار الزمان ؟
في سراع إلى القبر ؟

أنكم تشكون والسيارة تمشي لكم على الطريق الآهلة ، وأنتم قعود .
كلوث وتشربون ، ففكروا في بطل الدنيا سيف الله (خالد)
سجبه : كيف قطعوا هذه البادية على الإبل لا يمشون على طريق ،
يجدون ماء ولا زاداً كافياً ، والعدو يحيط بهم ، فلما وصلوا إلى الشام
تسلوا ويمدوا أرجلهم ... ولكنهم نازلوا جنود سيد الكتائب قيصر ،
يعوان منه الظفر ، وأخذوا منه البلاد ، فبقيت خالصة لامة محمد ، لن
غيرهم أبداً ، لا للإنكليز ولو غلبوا عليها حيناً ، ولا لليهود ، ولا
كان ...

لنك هم الرجال حقا !

. . .

فهذي هي الدير ، تبدو مناراتها من وراء البادية ، كما تبدو
، وراء البحر ، فحث الخطى بأياها السائق ، واسقها (البنزين) ،
سفر ، ونقد الصبر ، واشتد الشوق ...

لم ما يكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام

هي الدير قد وضعت ، أفلا تحسون أنكم مقبلون على مدينة

عراقية ، أليس لمنازلها وشاقة مآذن بغداد ، وإن لم يكن لها
ثوبها المزركش الذي تخطر فيه ، وتاجها الذهبي الذي تلمس تحتها . أليس
فرائدها هو الفرات الذي يجري في العراق وإن لم تزن كتفيه الروابي
المخضرة ، ولم يستدع فيه النخيل ، ولم ترح على صفحته الزوارق
الشعرية ، ولم يؤكل في القهوات المطلة عليه السمك المسقوف ؟

هذي هي الدير ، فدعوني يارفاق أفارقكم لحدث القراء (حديث
الدير) ... فان هم من لم يسمع من قبل باسمها !

★ ★ ★

وداع بغداد

كتبت سنة ١٩٣٩

الوداع يا بغداد .

يا بلد المنصور والرشيد ، والنعمان واحمد ، والكرخي والجنيد ،
وأبي نواس والعباس ، ومخارق واسحاق ، ومطيع وحماد .

يا منزل القواد والخلفاء ، والمحدثين والفقهاء ، والزهاد والأتقياء ،
والمغنين والشعراء ، والمجان والظرفاء .

يا مثابة العلم والتقى ، واللهو والفسق ، والمجد والغنى ، والفقر والخول
يا دنيا فيما من كل شي .

الوداع يا دار السلام ، ويا موئل العربية ، ويا قبة الاسلام .

يا بلداً أحببته قبل أن أراه ، وأحببته بعد ما رأيته . . . لقد عشت
فيك زمناً مرّ كحلم النائم ، صحت منه على صوت الداعي يؤذن بالفراق ،
فلم أجد منه في يدي إلا لذع الذكرى .

وجل تخلف الاحلام يا بلدُ إلا الاسى والآلام ؟

ولكنني على ذلك راضٍ راضٍ فالوداع يا بغداد واسلمي
على الزمان !

. . .

ودعتهما والسيارة تشتد بي الى المحطة تسلك اليها شوارع ذات بهجة
وجمال ، شبهتهما (المحطة غايتها) بليالي الحب كلها أنس وحلاوة ، ولكن
نمايتها وشدة الوحدة ومرارة الفراق . وشايفت الوداع فأيقنت أنني
مفارق بغداد عما قليل ، وأني سألتفت فلا أرى رياضها ولا أرباضها ،
ولا أبصر دجائتها ولا نخيلها ، وهجرى لساني بقول الاول (وإن من الاقوال
ما لا تبلى جدته ولا يضي زمانه) :

أقول لصاحبي والعيس تهوي	بنينا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجسد	فما بعد العشيّة من هرار
شهور قد (مضين) وما شعرنا	بأنصاف لمن ولا سرار
وأما لي لمن فخير ليل	وأطيب ما يكون من النهار

وجعلت أذكركم ودعت من احباب ، وكم فارقت من منازل ، وكم
قطعت قايي قطعاً أثرتها في ارض الله الواسعة التي لا تحفظ ذكركم ،
ولا تترى لبائس .

« رأيتني لا أكاد أستقر في بلد حتى تطرحني النوى في آخر ، كنبئة
لا تسكاد ترسخ في تربة وتمد فيها جذورها حتى تقلع وتنقل الى
تربة أخرى .

ورأيت أني دخلت بغداد يوم لم يكن قد جاءها أحد من أصحابي
فلبثت فيها وحيداً مستوحشاً ، لا أعرف منها إلا المسجد ، وما كان
لمسلم أن يرى نفسه غريباً في بلد فيه مسجد ، ولكنها العاطفة الضعيفة
المتأففة ، فلما ألفتها وصارت بلدي ، وغدا لها في قلبي مكان
نفيت عنها ...

دخلنا كارهين لها فلما ألقناها نخرجنا (مكرهيننا)

وفكرت في امري متى ألقى رحلي ، ومتى أحل حقائي ؟ وهل
كتب عليّ أن اطوف أبدأ في البلاد ، وأعيش غريباً وحيداً بعيداً عن
اهلي وكتبي وصحبي ؟

وماجت في رأسي الحواطر السود ، وماجت ، حتى لقد رأيت
الشوارع الحالية بالزهر صحراء مجربة ، ورأيت شعاع القمر المضيء
مظلماً خائباً .

ومن طواف تطواني ، واقبل مثلي على بلاد مالها في نفسه جورة ،
ولاله فيما صديق ، وفارق اهلاً اليه اسبة ، وصحباً عليه كراماً ، ومن
كانت حاله كحالي ، عرف صدق مقالي !

. . .

وصفر القطار وسار ، وطفقت ألوح بمندبلي لصديقي الاثريين
أنور وحسن^(١) ، حتى واراها عني الظلام ، فنظرت حولي فإذا أنا

(١) أنور المطار وحسن القواف .

وحيد في العربة الفضة ، لا انيس ولا مجلس ، فكر فكري راجعاً
الى بغداد .

بغداد ، يا مهد الحب ، يولد الحب علي جسر الذي نخرسه (العيون) ،
وينمو في زوارق ذات الابنعة البيض التي تحقق كلفات قلوب
اكبيها ، ويشب في كرخك وتحت ظلال نخيلك .

فتشوا ، كم تحت هذا الثرى من بقايا القلوب التي حطمها بسهام (العيون)
هذا الخالق الجبار ، الذي ولد علي الجسر شاباً ، وغا في الزورق ، واكمل
في الكرخ ، ثم لم يمت لانه من ابناء الخلود .

سأوا ارض بغداد : أعمدها من شهاد الفرام ؟

سأوا جرد بغداد : أين النغمات العذاب التي عطرت نسيمه بعطر الجنة ،
فهزت قلوباً ، وهاجت عواطف ، واضحكت وابكت ، وأماتت وأحيت .
هل أضمت ويحك هذه الثروة التي لا تعرض ؟

سأوا الجسر .. يا (جسر بغداد) لأن ما بقي من حديثك قد ملا
كتب الادب ، حتى لم يعرف الناس سوقاً للسواطف والافكار والعبر
اكبر من جسر بغداد ، فأين سائر اخبارك ؟

كم ضمنت ذراعيك على عشيقين فنعما بينهما بلذة الحب ؟

وكم تركت حبيباً ينتظر فلا يرجع بعد الانتظار إلا بالحيلة والاسى !
وكم عطفت على بائس منكود ، واعرضت عن منكود بائس
فأريت الاول من مشاهد الحياة ما هوّن عليه ما هو فيه ، وزدت الثاني
بؤساً ونكدأ .

وكم وعيت من أسرار الحب والبغض ، والفرح والحزن ، والفنى والفقر ،
والهزة والذل ، وكل ما تحتوي الحياة وتشمل النفس من ألوان ؟
كم وأيت من حصاد الأدمغة وثمرات القلوب ؟

كم مدت^(١) تحت أقدام خليفة كانت تصفي له الدنيا إذا قال لأنه
ينطق بلسان محمد ، وفائد كانت تخضع له الامم إذا ماور لأنه يلوّح
بسيف محمد ؟

يا (جسر غازي) الجديد ، الهائل العظيم ، أعندك نبأ من ذلك
الجسر الذي كان شاهماً من العوالم ؟ والذي كان سرّة الدنيا وقطب
رحاها ؟ وكان للجدّة إذا جدّ الجدّ ، وللزل إذا جاز الزل . دعوى الجهد
من أساسه ، وجمع المتعة من أطرافها ؟



وهذه المناورة المنصنية المائلة في (سوق الغزل) تنظر بعيني
أم ثكلى . . . ماوها أين مسجدّها الذي كان يضيق على سمعته
بالمصلين ، حتى تمتد الصفوف الى الشارع ثم تتالى حتى تبلغ
للنهر^(٢) ؟

أين أولئك العلماء الذين أترعوا الدنيا علماً ، وملأوا آفاق الارض
نوراً وهدى ؟ أين مواكب الخلفاء حيث . . .

(١) من : ماد عبيد .

(٢) كذلك قال التاريخ .

الحيل تصهل والفوارس تدعى والبيض تلمع والاسنة تزهو

ومشيم في رحاب بيت الله ...

... مشية خاشع متواضع لله لا يزهي ولا يتكبر

أين فرسان المناير وأبطالها ؟

أين جيران المحارب وجلائمها ؟

أين ... أين ... ؟

يا أسفي ! لقد سرق المسجد ، وهدم المنبر ، وضاع المحراب ، ولم
تحفظ الحجارة يا بغداد ما ترك ومصانئك ، ولا رعت الأرض ذكريات
حبك ، ولا أبقي الجور رنات عيذك ... أهلا حفظنا قلوب أقسم
أصعابها أنهم ذاكروا عهدك وأنهم مرجعوا نجدك ؟

فأين مسجد بغداد الجامع يا مديرية الاوقاف ؟

أين المسجد يا إدارة الآثار ؟

أين المسجد يا من اتخدم المسجد بيوتا ودكاكين وتركتم المنارة
منعنية عليه تبكي !

أين المدرسة النظامية يا من أقمتم على انقاضها سوق الشورجة لتبيعوا
فيه البصل والثوم وقد كانت تباع فيها حيوات السلاء وعصارات
عقولهم وقلوبهم ؟

لا تحزني يا بغداد واصبري فان كل شيء يعود ما بقي في القلب إيمان ،
وفي الفم لسان ، وفي اليد حنان

. . .

وثلث وراني ، فاذا بغداد قد اختفت وراء الأفق ، وغابت
صداوب الاعظمية التي تحاذي النهر ، تنكشف تارة فتضيء ثم تختفي في
ظلال النخيل ، كشاعر منفرد متأمل ، او محب مهزول ، يناجي طيف
الحبيب ، ويسامر ليالي الوصال التي تلوح له صورها . والنهر يطالع عليها
مرة بصفحة البيضاء المشرقة التي تشبه أمنية بدت طام ، ثم يحجبها عنها
النخيل ، ويمحوه الظلام كما تمحو الحياة بواقعها الاحلام ونطمس
حرو الاماني ...

وغابت شوارع الصاحبة ذات الفتنة والجلال ، وغابت المآذن الرشيقة ،
وغابت القباب ... وبقيت انا والماضي !

هذا الماضي الذي طالما قاسبت منه ، وطالما كابدت ، ثم كلها أوغاث
به انحداراً في اعماق نفسي ، ردفته في هوة الذكرى ، وقلت مات ،
هاد حياً كاملاً تثيره نعمة ، وتهبجه صورة ، ويبعثه بيت من الشعر ..
فبيعت بحياته آلامي .

غابت بغداد ، فسلام على بغداد .

واشهدوا أنه ما بعد دمشق بلد أحب إليّ من بغداد ، و
العتابا نعمة اوقع في قلبي من الابودية ، ولا بعد الحور شجر اجمل في عيني
من النخيل ، ولا بعد بردى نهر أعز على نفسي من دجلة .

أستغفر الله ! إلا حرّم الله ومدينة نيّته ، فيها والله أحب
البلاد إليّ ، وماؤهما ألد المياه في في ، وشجرهما أبهى الشجر
في بصري . .

السلام عليك يا بغداد وعلى ساكنيك السلام ...

★ ★ ★

نصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩٨	٣	تسلّمها	تستلمها
١٠٠	١٢	عجيبة	عجيبة

آثار المؤلف

كتب نفذت

- | | | | |
|-------------------------------|---------|-----------------------|---------|
| ١- رسائل الإصلاح | ١٣٤٨ هـ | ٥- في التحليل الأدبي | ١٣٥٣ هـ |
| ٢- بشار بن برد | ١٣٤٨ هـ | ٦- عمر بن الخطاب جزآن | ١٣٥٢ هـ |
| ٣- رسائل سيف الإسلام | ١٣٤٩ هـ | ٧- كتاب المحفوظات | ١٣٥٥ هـ |
| ٤- الهيتيات | ١٣٤٩ هـ | ٨- في بلاد العرب | ١٩٣٩ م |
| ٩- من التاريخ الاسلامي ١٩٣٩ م | | | |

كتب صدرت حديثاً

- | | | |
|------------------------------------|----------------------------|--------|
| ١- أبو بكر الصديق (طبعة ٢) ١٣٧٢ هـ | ١٢- متاف المجد | ١٩٦٠ م |
| ٢- قصص من التاريخ | ١٣- من حديث النفس | ١٩٦٠ م |
| ٣- رجال من التاريخ | ١٤- الجامع الأموي | ١٩٦٠ م |
| ٤- صور وخواطر | ١٥- في اندونيسيا | ١٩٦٠ م |
| ٥- قصص من الحياة | ١٦- فصول اسلامية | ١٩٦٠ م |
| ٦- في سبيل الإصلاح | ١٧- صيد الخاطر لابن الجوزي | |
| ٧- دمشق | (تحقيق وتعليق) | ١٩٦٠ م |
| ٨- أخبار عمر | ١٨- فكر ومباحث | ١٩٦٠ م |
| ٩- مقالات في كلمات | ١٩- مع الناس | ١٩٦٠ م |
| ١٠- من نفعات الحرم | ٢٠- بغداد | ١٩٦٠ م |
| ١١- سلسلة حكايات من التاريخ ١٩٦٠ م | | |

الفهرس

صفحة

٥	فلم بغداد
١٦	من دمشق الى بغداد
٢٤	سُرَّ من رأى
٣٨	على ابران كسرى
٤٧	ثورة دجلة
٥٧	صورة ...
٦٠	يوم الفتوة في بغداد
٧٠	من ذكريات بغداد
٨٠	يوم من أيام بغداد
٩٠	تحية وشكر
٩٥	نوري السعيد
١٠٢	نداء لم يجد مجيباً
١٠٩	ثورة قموز في العراق
١١٧	صورة سوداء من بغداد
١٢٤	الذكرى والتاريخ : بغداد في يوم غازي
١٣١	لذكرى والتاريخ : يا غازي عليك رحمة الله
١٣٩	من دمشق الى «دير الزور»
١٥٠	وداع بغداد